أروع ما قيل في المديح

إميل ناصيف

دار الجيل
بيروت

أروع ما قيل في المديح

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

مقدِّمة

« وما الشعر إلاّ من الشعور، بل هو الشعور ذاته تفيض به النفس، فيتّحد بنغم يوقعه الشاعر على أوتار قلبه، ويحمله على أجنحة مخيّلته، فيولد ما يدعونه القصيدة ».

فؤاد أفرام البستاني

تضمّ هذه السلسلة أروع ما قيل في الأدب العربيّ، وخاصّة الشّعر منه، في الغزل، والمدح، والهجاء، والرثاء، وغير ذلك من أغراض الشعر الغنائيّ المختلفة.

وقد حاولتُ في اختياري القصائد والمقطوعات الشِّعريّة التي أثبّتها في هذه السلسلة أن أُنَوِّع في الموضوعات، والعصور، والأدباء، والأفكار، والصُّور الشِّعريّة، فيأتي كلّ كتاب من هذه السلسلة بستاناً نَضِراً بما يحوي من ثمار شهيّة متنوّعة، وأزاهير فوّاحة مختلفة الألوان.

واعتمدتُ في الاختيار على ذائقتي الأدبيَّة، وعلى ملاحظات بعض الأصدقاء الأدباء واختياراتهم. فإنْ كان ما تتضمّنه هذه السلسلة لا يمثِّل أحلى الكلام، فهو، على الأقلّ، من أحلى الكلام، أو أحلى ما استطعتُ الوصول إليه. وبديهيّ القول إنّ الإحاطة بما صدر عن الأدباء العرب من حُلْو الكلام على اتّساع رقعة انتشار اللغة العربيّة، وفي امتداد تاريخيّ يقارب الألف وخمسمئة سنة تقريباً، أمر يستحيل على جمهرة من الأدباء يسلخون قسماً من أعمارهم في جمع أشعار العرب ونثرهم، ثمّ يختارون أفضله وأحلاه. ولذلك نرى أنّ كلّ من كتب كتاباً لكتب هذه السلسلة، أو جمع مختارات من أشعار العرب كما فعل أبو تمام في كتابه « ديوان الحماسة »، والعماد الدكتور مصطفى طلاس في كتابه « شاعر وقصيدة »

قد أثْبتَ أفضل ما تحصّل لديه دون أن تكون محصلته الأدبيّة، هي بالضرورة، الأفْضَل والأروع.

وليس لي في هذه السلسلة سوى فضل «الجمع» و«الاختيار»، و«التنسيق». أمّا «الجمع» فقد اقتضى أن أعيش مدّةً من الزمن بين التصانيف الكثيرة، حتّى إذا وقعتُ على قصيدة جميلة، أو مقطوعة شعريّة حلوة، أو فكرة عميقة صيغَتْ بأسلوب فَنّيّ مُمْتِع، رأيتني أضمّها إلى أخواتها، ثمّ اخترتُ ما ظننتُ أنّه أفضله، وليس أصعب من أن تختار بعض أزاهير البساتين لتقدّمها على انّها تُمثّل البساتين تمثيلاً دقيقاً.

وتضم هذه السلسلة الكتب التالية:

١ ـ أروع ما قيل في الحبّ والغزل.
٢ ـ أروع ما قيل في الرّثاء.
٣ ـ أروع ما قيل في الهجاء.
٤ ـ أروع ما قيل في المدح.
٥ ـ أروع ما قيل في الحكمة.
٦ ـ أروع ما قيل في الزّهد.
٧ ـ أروع ما قيل في الوطنيّات.
٨ ـ أروع ما قيل في الخمر واللهو والمجون.
٩ ـ أروع ما قيل في الفخر والحماسة.
١٠ـ أروع ما قيل في الوصف.
١١ـ أروع ما قيل من الموشّحات.

وبعد، أرجو، أيّها القارىء العزيز، أن تعجبك هذه السلسلة بما اخترته لك فيها من أروع ما قيل في أدبنا العربيّ.

والله وليّ التوفيق

المؤلّف

القسم الأول :

المديح وتطوّره في الأدب العربيّ

الفصل الأول:

المديح وعوامل نشأته

١ ـ التعريف بالمديح:

هو فنّ من فنون الشعر الغنائيّ يقوم على عاطفة الإعجاب، ويعبّر عن شعور - تجاه فرد من الأفراد، أو جماعة أو هيئة ـ مَلَكَ على الشاعر إحساسه، وأثار في نفسه روح الإكبار والاحترام لمن جعله موضع مديحه. وفي هذا الفنّ من الشعر تعداد للمزايا الجميلة، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنّه الشّاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا وعرفوا بمثل هاتيك الصفات والشمائل.

والمديح من أقدم الفنون الأدبيّة، عرفته الشعوب البدائية يوم رفعت إلى الآلهة صلواتها وقدّمت القرابين إلى أصنامها ووضعت نفسها تحت وصاية زعمائها وأبطالها. فمنذ فجر التاريخ أحسّ الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان، ورأى الأقدار تضع وترفع وتعطي وتمنع، لذلك سعى إلى إرضاء من هم فوقه، وتجمّل حيالهم بالقول، فوقف منهم موقف الاحترام والتودّد. وسواء أكان هذا المديح صادرًا عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه فهو يعترف بالأفضليّة لمن يتصوّر أنّهم سبقوه بالغنى أو الشجاعة والقوة أو الفهم والذكاء.

ونظرة المادح إلى الممدوح تشترك مع الناس جميعًا في النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والغني والأمير نظرة خاصة فيها الكثير من الإجلال والإكرام؛

يعبّر فيها صاحبها عن ذاته بما يتوافر لديه من ضروب القول والحديث والبيان شعرًا ونثرًا.

ولسنا ندري كيف جاءت المدائح الأولى عند الإنسان الأوّل، ولكنّ النقوش القديمة تحمل على صفحاتها الحمد والثناء لأشخاص وجماعات وتشيد بالقوّاد أو الملوك وتتحدّث عن انتصاراتهم ومواهبهم، وتمنحهم ألقابًا ونعوتًا وصفات تسمّى، في عرفنا اليوم، مدائح. فقد نشأ الإنسان على خوف من القوة والبطش فلذلك رأيناه يمجّد البحر والرعد والأسد والمطر والشمس والقمر والنار ويتوجّه إليها خاضعًا خاشعًا مبديًا إعجابه. وسرعان ما اكتشف فكرة الإله، فجعل لكلّ شيء إلهًا، في بادئ الأمر، ثمّ توجّه إلى الآلهة بصلواته وعبادته وتضرّعاته فغدت هذه كلّها مدائح، إلى أن اكتشف فكرة الإله الواحد فأصبحت مدائحه صلاة.

وهذا النوع من المديح عرفناه عند المصريّين القدامى مكتوبًا على ورق البردى يتوجّه فيه الفلّاح المصريّ إلى سيّده الفرعون، كما عرفناه عند أهل الصين القدامى في كتبهم الدينيّة وملاحمهم مثل كتاب كونفوشيوس أو «الماها بهارتا» أو «رامیانا». وعرفنا هذا المديح أيضًا عند الفرس في كتابات زرادشت كما عرفناه في التوراة والتلمود ولا سيما في مزامير داود. وقد استمرّ هذا المديح عند اليونان، نراه جليًّا في الإلياذة والأوديسّة وفيه تمجيد للقوّة والشجاعة والبطولة، وإشادة بالخير والعدل والحقّ. ولمّا جاء القرن الخامس عشر قام الانكليز والفرنسيون على لسان شعراء «التروبادور» منهم، يمجّدون البسالة والشجاعة وكرم الأخلاق، ولم يتخلّف عنهم الألمان والأسبان في مدح الزعماء والقوّاد والملوك.

٢ ـ المديح في الأدب العربيّ:

ذكرنا أنّ الأمم جميعًا كانوا يكرّمون عظماءهم في أمور الدين والدنيا على السواء، وسنحاول في تلك الفقرة أن ننظر كيف كان العرب يرسمون إعجابهم

وتقديرهم حينما كانوا يتوجّهون إلى مادحيهم.

يعتبر المديح أبرز الفنون الشعريّة عند العرب على الاطلاق، رافق الشعر منذ نشأته الأولى كما يرافق الوتر العود. فعلى الرغم من التطوّرات التي طرأت على العمليّة الشعريّة ومن التبديل الذي أصاب الشعر من حيث المفاهيم والمقاييس، فإنّ المديح لم يغب في يوم من الأيّام عن مسرح الشّعر. بل ظلّ هو الأصل وسائر الفنون الشعريّة هي الفرع. يتناوله الشعراء ويصرفون إليه كلّ عناية واهتمام كأنّه استقرّ في أذهانهم أنّ الشاعر خلق ليكون مدّاحًا، فإذا نظم شعرًا في غير المدح كان كالرّامي الذي يرمي سهامًا طائشة بعيدة عن إطار هدفها. من هنا كان حلم كلّ شاعر أن يسخّر عبقريّته في هذا الاتّجاه فيجعل شعره بابًا للرزق ومفتاحًا للثروة، حتى طبع الأدب العربي بطابع المديح وبات من الصعب أن نجد شاعرًا عربيًا من العباقرة لم يصطنع المديح، لدرجة أن امتلأت الدواوين بهذا اللون وغدت قصائدها تشكّل القسم الغالب في نتاج الشعراء.

٣ ـ عوامل نشأة شعر المديح:

نشأ فن المديح عند العرب، لا بدافع الكسب والتزلّف أوّل الأمر، بل إعجابًا بالفضيلة وثناء على صاحبها، واهتزازًا أمام النبل والأريحيّة، وإكبارًا للمروءة والشجاعة. وقد كان لطبيعة الحياة الجاهلية ونظم المعيشة آنذاك أبلغ الأثر في شيوع هذا الفنّ وانتشاره، والإنسان مفطور على حب الإطراء مهما يكن قسطه من الفهم والعظمة، ومفطور أيضًا على المجاملة تقرّبًا من النّاس واكتسابًا لودّهم.

والبدوي خاصة، ذاتيّ في تصرّفاته ومشاعره، شديد اليقظة والالتفات إلى ما يمسّ فرديّته، مرهف الحساسية، سريع التأثّر. فكان بسبب ذلك معتدًّا بنفسه، غيورًا على شرفه وعرضه، وعلى ضيفه وعلى من يستجير به، حريصًا على الظهور أمام النّاس بمظهر الرجل المحترم، والبطل الشجاع، والكريم الأبيّ، يُمتدح بين القوم، ويثنى على خصاله وفعاله.

وكان من أثر النظام القبليّ آنذاك أن أخذ الشعراء يمتدحون شيوخ القبائل والأبطال فينسبون إليهم فضائل ذلك العصر من تسامح وحلم وحكمة وكرم ومروءة وإباء وأنفة وعدل وشجاعة وما إلى ذلك. وممّا زادهم إقبالًا على مديح الزعماء، ما كان يحدث بين القبائل من تنافس في الشعر، فكلّ قبيلة تجرّد شاعرها للذود عنها وامتداح قوّادها وأبطالها والتغنّي بمآثرهم.

ومن عوامل انتشار المديح في العصور الأدبيّة الأولى، وفي مجتمعات الصحراء، تلك المقدّسات التي كانوا يلتزمون بها من ضيافة ونجدة وحسن جوار وثأر والتي كان يلتزم بها كلّ عربيّ ويؤدي فروضها كاملة مهما يكن شأنه. وكان قضاء هذه الموجبات يترجم في معظم الأحيان مديحًا للغير أو فخرًا بالذات. ونتيجة لذلك كان المديح في أوّل عهده مدرسة أخلاق تعمل على بلورة المثل العليا وترسيخها، وحضّ النّاس على تشجيعها واحتمال كلّ ما تتطلّبه من حزم وصبر وشدّة، وهم عندما يتوجّهون إلى ممدوح تتوافر فيه هذه الفضائل إنّما يجعلونه مثلًا يحتذى ورجلًا كاملًا تتجسّد في شخصه هذه المثل والفضائل وتتبلور.

الفصل الثاني

تطوّر المديح في الأدب العربيّ خلال العصور

١ ـ في الجاهليّة:

بدأ المديح في الجاهلية شعرًا يقال في مناسبات لا يستطيع المال أن يفيها حقّها. فكان إقرارًا بفضل أو إمعانًا في شكر أو تقديرًا لموقف، وكان الشاعر يجد نفسه منساقًا إلى التعبير عن مشاعره دون أن يبتغي جزاء أو معروفًا وكأنّه شاهد حقّ، وكان النّاس يأخذون شعره دليلًا يتناقلونه للتأكيد على قرب الممدوح من الفضيلة أو ابتعاد المهجوّ عنها. وكان الشّعر الجيّد من هذا المديح يتحوّل إلى أمثال سائرة يتناقلها الناس جيلًا عن جيل. فقد قال امرؤ القيس بيتًا يمدح فيه بني تيم قوم المعلّى الذي أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء:

أَقرَّ حشا امرىءِ القيسِ بنِ حُجْرٍ بنو تيم مصابيحُ الظلامِ

فقيل لبني تيم «مصابيح الظلام» منذ ذلك اليوم.

وخير دليل على ابتعاد ذلك الشعر عن المادّة ديوان زهير بن أبي سلمى الذي يدور أكثره على مدح هرم بن سنان والحرث بن عوف وغيرهما لوقفهما حرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان ودفعهما ديات القتلى من الطرفين والتي بلغت ثلاثة آلاف بعير.

ولم يتحوّل الشعر إلى أداة للتكسّب إلا حين لذّ لجماعة من الممدوحين أن

يقال فيهم ما يرضي كبرياءهم وغرورهم، ويستجيب لنزوات الأنانيّة لديهم، فعمدوا إلى الأموال والهدايا يغدقونها على الشعراء يستحثون قرائحهم لنظم الأشعار في التغنّي بأعمالهم. وكان نتيجة لذلك أن ذاق الشعراء حلاوة العطاء، فانشغلوا به عن كلّ شيء، وسهل عليهم أن ينظموا قصيدة من بضعة أبيات من الشعر ليتقاضوا لقاءها مبلغًا من المال يسدّ حاجتهم لفترة طويلة. وقد روى ابن رشيق عن النابغة الذبياني قائلًا: «كانت العرب لا تتكسّب بالشّعر... حتى نشأ النابغة الذبياني، فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر، فسقطت منزلته، وتكسّب مالًا جسيمًا حتّى كان أكله وشربه في صحاف من الذهب والفضّة وأوانيه من عطاء الملوك».

وإذا جاز لنا الشكّ بأنّ النابغة لم يكن أوّل المتكسّبين بشعرهم، لا يسعنا إلّا الاعتراف بأنّه كبير شعراء التكسّب في العصر الجاهلي، فكان أوّل الذين مهّدوا سبيل التكسّب لمن جاء بعده من الشعراء. والذي لا يرقى إليه شكّ هو أنّ النابغة هو أول الشعراء الكبار الذين درّ عليهم شعرهم الثروة والنعيم. ومهما يكن من أمر التكسّب بالمديح في الشعر الجاهلي فإنّه ظلّ على شيء من عفّة النفس، بعيدًا عن صراحة السؤال، ولا سيما عند زهير وطرفة والحطيئة. وإذا كان الأعشى قد شذّ عن هذه القاعدة، إضافة إلى النابغة، فإنّ الغالب على الشعر الجاهلي يظل بعده عن التكسّب.

٢ - في صدر الإسلام:

ولمّا جاء الإسلام خفت الشعر بصورة عامّة، عدا شعر الكافرين الذين راحوا يناضلون الرسول، فاضطرّ النبيّ إلى الردّ عليهم بسلاحهم، فكان حسّان بن ثابت من الشعراء الذين تبعوه ووقفوا إلى جانبه مدافعين عنه وعن الدين الجديد. وقد رفض النبيّ أنْ يمدحه الشعراء إلا بما يتّصف به ويدعو الناس إلى اعتناقه، من فضائل تصب في خدمة الدين ومصلحة الرسالة التي نذر نفسه لأدائها. فالمديح

مقبول، برأي النبيّ، ما دام صادقًا ويرمي إلى غاية سامية، وما دام لا ينجم عنه إلّا الخير. أمّا إذا تحوّل إلى نفاق، فأقلّ ما يستحقّه المدّاح هو أن يحثى في وجهه التراب. وقد تدهورت منزلة المديح منذ بداية الاسلام نتيجة لتلك التطوّرات، وفي ذلك يقول صاحب العمدة: «كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب، لحاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر. فلما تكسّبوا به، وجعلوه طعمة، وتولّوا به الأعراض وتناولوها، صارت الخطابة فوقه. وعلى هذا المنهاج كانوا، حتى فشت فيهم الضراعة، وتطعّموا أموال الناس، وجشعوا فخشعوا، واطمأنّت بهم دار الذِّلّة، إلا من وقّر نفسه وقارها».

وهكذا كان الشاعر المتكسّب محتقرًا عهد النبي والخلفاء الراشدين. فكان عمر بن الخطاب لا يكترث للمديح وقد صرف همّه إلى تركيز الوحدة القومية والخروج بها وبالدين إلى ما وراء حدود الجزيرة العربيّة. وكان علي بن أبي طالب لا يرضى التزلّف الذي يأتيه الشعراء في مدائحهم وهو القائل لأحدهم وقد أطال في الكلام وأثنى: «يا هذا أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك». وكان الخلفاء الراشدون يرون أن قيمة الشعر لا تقدّر بمال، يدلّ على ذلك ما ذكر عن عمر بن الخطّاب من أنّه لقي ذات يوم ابنة الشّاعر زهير بن أبي سلمي، فسألها: «ما فعلتِ بحلل هرم بن سنان التي كساها أباكِ؟» فقالت: «لقد أبلاها الدهر». قال: «ولكن ما كساه أبوك هرمًا لم يبله الدهر». كما ذكر عنه أيضًا جوابه لأحد أولاد هرم وقد زعم أنّهم كانوا يجزلون العطاء لزهير: «ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم».

٣ ـ في العهد الأمويّ:

ما إن انقضى عهد الخلفاء الراشدين حتى عادت الخصومات بين العرب إلى شبه ما كانت عليه في الجاهليّة. فإذا هناك أحزاب تتصارع بالسيف وبالكلمة. ولكل حزب شعراء ينطقون باسمه ويمدحون زعماءه ويروّجون لسياسته، ويهجون

خصومه ويردون على شعرائهم. وقد تحوّل الشعر بفعل هذه الأحداث والصراعات من جديد إلى أداة للتكسّب وخاصة على أيدي الخلفاء الأمويّين الذين شجعوا هذا الاتّجاه في الشعر وأغدقوا بسخاء على شعراء المديح الذين توافدوا إلى الشّام من كلّ الأقطار المجاورة. فجمعوا حولهم أقطاب الشعر يبذلون لهم المال للدفاع عن سياستهم وإظهار حقّهم الإلهي في الخلافة إثر موقعة صفّين. فكان الشّاعر بمثابة الصحيفة الناطقة باسم هذا الحزب أو ذاك. فتهافت الشعراء على الخلفاء طامعين بلقب شاعر الخليفة حتى إذا لم يبلغوا هذا المقام الرفيع قنعوا بما دونه منصرفين إلى الولاة والحكّام والقوّاد أو إلى من هم دونهم مرتبة، يبتغون الثروة ويتوسّلون الشفاعة لديهم للوصول إلى باب الخليفة. فها هو الأخطل يتوّج شاعر البلاط الأموي حين يقول:

ويومَ صفينَ والأبصارُ خاشعةٌ   أَمَدَّهمْ - إذْ دعوا من ربّهم - مَدَدُ

وها هو جرير يمدح الحجّاج أولًا توسّلًا لبلوغ الخلفاء عبد الملك وسليمان ويزيد وهشام... لكنّه يقصّر عن مزاحمة الأخطل في احتلال المركز الأوّل في بلاط عبد الملك.

وكلّ هذه الظواهر أدّت إلى نتائج سَيئة في حياة الأدب العربي، فجعلت الشعر أسير المال مقيّدًا بقيود المادّة لم يستطع أن يتخلّص من هذا الارتهان طوال أزمنة طويلة. ونشأ من ذلك أن الشّعراء راحوا يتزاحمون في التسكّع على أبواب أولياء الأمر، يردّدون المعاني المكرّرة في المديح فيقعون في الكذب والمبالغة، كلّ ذلك على حساب الذوق الأدبي وعزّة وكرامة الشّاعر والمستمع على السواء. ولم نجد في عهد بني أميّة شاعرًا لم يلتحق بهذا الركب سوى شعراء الغزل أمثال عمر بن أبي ربيعة أو جميل بن معمر وغيرهم.

٤ - في العهد العبّاسيّ:

مع بداية العصر العبّاسي كان شعر المديح قد تبوّأ المكان الأرحب في الشعر

العربي، وأصبحت سائر الأبواب تبدو إلى جانبه صغيرة إذا لم نقل إنّها أصبحت في خدمته. فقد تفرّقت الدولة الإسلاميّة شيعًا، وتقسّم الملوك مناطق العالم الإسلامي، فازدادت موارد الرزق عند شعراء المديح وأصبح همّ كلّ شاعر أن يسافر إلى أمير يكفيه، أو قائد يحميه. فرأينا أسماء بعض الشعراء تقترن بأسماء بعض الخلفاء والأمراء، من ذلك: المتنبّي وسيف الدولة، أبو تمّام والمعتصم، البحتري والمتوكّل... على أن التكسّب بلغ أشدّه في ذلك العصر، وبلغ في افتضاح أمره وابتذال سوقه أن الجاحظ حذّر النّاس من الوقوع في حبائل المتكسّبين، فقال: «ما ظنّك بالشعراء والخطباء الذين إنّما تعلّموا المنطق لصناعة التكسّب!؟». وكانت قصائد المديح متشابهة تبدأ بالنسيب المتكلّف ثم تذكر الطريق التي سلكها الشّاعر لبلوغ الممدوح والمشقّات التي تكبّدها، والصّعاب التي اعترضته، والخيل أو النّوق التي أقلّته حتى يصل إلى الممدوح حيث الجود والكرم والشجاعة والنجدة والبلاغة والبيان.

وبالنتيجة ظلّ المديح آخذًا بمقدّمة الشعر العربي حتى ضيّع عليه الكثير من المعاني الإنسانية وصرفه عن مواطن فنّيّة كان قادرًا على اكتشافها والإبداع فيها وأبعده عن عالم الوجدان وحرّم عليه سلوك طريق الملحمة أو المسرحية أو غيرها من الفنون الأدبيّة التي اشتهرت بها آداب الشعوب الأخرى.

٥ ـ بعد العهد العبّاسيّ:

انتقل المديح إلى الأندلس بانتقال العرب إليها وراح الشعراء يقلّدون أساليب المشارقة. وقد ساعد على ازدهار شعر المديح ما حصل من تفرّق الدويلات في عهد ملوك الطوائف وتنافس الأمراء على احتضان أرباب الشعر والكلمة. أمّا في عصر الانحطاط فقد ألحّ الشعراء على القديم وعادوا يكرّرونه دون تبديل في صوره ومعانيه حتى سقط الشّعر على أيديهم كما سقط العالم السياسي للمسلمين في ظلمات داجية.

ولما كان القرن العشرون عادت جذوة المديح إلى النفوس ونشأ في مصر شعراء حول الملوك والخلفاء يتّجهون حينًا إلى قصور الآستانة وحينًا آخر إلى قصور القاهرة، أو يتردّدون حول الوجهاء والزعماء أو يطرقون أبوابًا جديدة في امتداح البلدان والأوطان.

وهوذا أمير الشعراء أحمد شوقي يهتزّ متباهيًا حين يصبح شاعر قصر الخديوي في مصر ويقول باعتزاز:

شـــاعــرُ العــزيــــز ومـــــا بـــــالقليـــــلِ ذا اللّقـــــبُ

ولكن الأدب الحديث يمجّ شعر المديح إجمالًا لما اقترن به خلال العصور من ألوان التكسّب والتذلّل.

القسم الثاني

أنواع المديح بحسب الممدوحين

تختلف أنواع المديح باختلاف الممدوحين، ونستطيع أن نميِّز بين هذه الأنواع، أو « الألوان » كما يحلو للبعض أن يسمِّيها ، ما يلي:

١ ـ المديح الدينيّ.

٢ ـ مديح الملوك والخلفاء.

٣ ـ مديح الأمراء والوزراء والوجهاء.

٤ ـ مديح العلماء والأدباء.

٥ ـ مديح الأوطان والبلدان.

وسنخصِّص لكل نوع من هذه الأنواع فصلًا مستقلًا في هذا القسم من كتابنا هذا.

الفصل الرابع

المديح الديني

١ ـ مدح الله عزّ جلاله:

لقد أكثرت الكتب الدينيّة من ذكر الله وبيان معجزاته في خلقه، والاعتراف بفضله على المخلوقات جميعًا. لذلك سار الشعراء منذ القديم على تقديسه فرأوا في الطبيعة سرّ جماله وفي جمال الدنيا سرّ عظمته.

فقد قال حسّان بن ثابت:

تعاليتَ ربَّ الناسِ عن قولِ من دعا سواكَ إلٰهًا أنتَ أعلى وأمجدُ

ثم رأينا أبا العتاهية يرى عظمة الخالق في كلّ شيء فيقول:

وإنّك معروف ولست بموصوفٍ وإنّك موجود ولست بمحدودِ

وقد كان كثير من الشعراء يشاركون في هذا المديح الديني حتّى تطوّر هذا المديح فأصبح أقرب إلى النسيب مع شعراء المتصوّفة الذين أدخلوا الفلسفة والعقل في شعرهم. ولكنّ هذا الشعر لم يتطوّر كما تطوّر في مديح النبيّ محمّد خاتم الأنبياء (ﷺ)، وفي الثناء على رسالته التي جاء بها والاعتزاز بفضله، وبيان أياديه على الإسلام والمسلمين، والإشادة بمحامده.

٢ ـ المديح النبويّ:

كان العرب يعيشون قبل الإسلام في أطراف الأرض على نظام غريب وأسلوب عجيب عشائر وقبائل تتصادم وتتناحر. فلما ظهر النبي محمد (ﷺ) دعا الى وحدة العرب واجتماعهم تحت دين واحد وراية واحدة لينقذهم من فوضى تشلّ حياتهم وحروب تستنفد قواهم. فهزّت تلك الدعوة الممالك المجاورة فوقفت بين مصدّقة ومكذّبة ووقف الشعراء منها موقف الدفاع أو الهجوم. أمّا المدافعون عن النبيّ ورسالته فقد امتدحوا خصال النبيّ وشمائله وكان مديحهم أشبه بمديح الأجواد والكرماء من رؤساء القبائل، ليس فيه ذكر للدين والتقوى والأخلاق. أمّا كعب بن زهير فقد مدح النبيّ بقصيدة سارت على الزمان وقلّدها الشعراء على مرّ العصور، يعتذر فيها من النبيّ ويطلب عفوه لما بدر منه حيث قال فيها:

إنّ الرسول لنورٌ يُستضاء به   مهنّدٌ من سيوف الله مسلولُ

وبلغ بذلك منتهى المديح العربيّ القديم، إذ جمع الكرم والعفو والتسامح والشجاعة والوقار والسيادة والقداسة في شخص النبيّ. ثم انبرى حسّان بن ثابت شاعر الرسول يدافع عن النبيّ وعن دعوته الجديدة، فإذا رسالته هدىً للناس وإذا النبي هو الكمال المجسّم والخلق المصفّى:

خلقتَ مبرّأً من كلّ عيبٍ   كأنّكَ قد خُلقتَ كما تشاءُ

وظلّ الشعراء في كلّ عصر يفعلون كما فعل حسّان بن ثابت، حتّى جاء القرن السابع للهجرة، فوضع محمد بن سعيد البوصيري قصيدته الهمزيّة الشهيرة التي زادت على أربعمائة بيت بسط فيها حياة النبيّ ومزاياه ومعجزاته، ورسم مولده في ليلة غرّاء وضعته فيها أمّه آمنة بنت وهب. ثم ينتقل إلى وصفه كرجل في قصيدة أخرى يقول فيها:

كالزّهرِ في ترفٍ والبدرِ في شرفٍ   والبحرِ في كرمٍ والدهرِ في هِمَمِ

وهذه القصيدة الميميّة سميت «البردة» فحفظتها الأجيال الإسلامية، وتولّتها المطابع، وشرحها الشّارحون، وعارضها الشعراء على مدى العصور.

ولم يخلُ القرن الماضي والقرن الحالي من شعراء امتدحوا النبيّ نذكر منهم محمود سامي البارودي وأحمد شوقي في «الهمزيّة النبويّة»، وفي القصيدة الميميّة «نهج البردة»، والبائيّة التي مطلعها:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا . . . .

حيث يقول فيها:

وكان بيانه للهدْي سُبْلًا   وكانتْ خيلُهُ للحقِّ غابا

وعلّمنا بناءَ المجدِ حتّى   أخذنا إمرةَ الأرض اغتصابا

وما نيلُ المطالبِ بالتمنّي   ولكنْ تُؤخَذُ الدنيا غلابا

ولن نوفي حقّ هؤلاء الشعراء في مديح النبيّ، لأنّ ذلك يطول، بل نؤكّد أنّ الشعراء اتجهوا إلى نبيّهم كلّما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ونالتهم المصائب والكوارث.

٣ ـ مديح آل البيت:

إذا كان الشعراء قد امتدحوا الرسول ونبوّته، فقد امتدحوا آله وأهل بيته، يدفعهم الألم والحرمان في كثير من الأحيان، فأظهروا عاطفة الدين ممزوجة بعاطفة السياسة. وقد الحّوا على تصوير الفواجع التي ألمّت بأهل البيت كمقتل الحسن والحسين وإحياء تلك الذكرى في المآتم. فجرى شعرهم في الدواوين كما جرت الدماء في تلك الفواجع وما زال حتّى اليوم كأننا في الأيام الأولى من الإسلام. فإذا بالأحفاد يحملون فكرة الانتقام من أبناء لا يملكون إلّا الأسف لما وقع بين أجدادهم في القديم.

فها هو الكميت في هاشميّاته يمدح أهل البيت ويتناول الأمويّين بالهجاء ويرى أنّهم لا يصلحون لخلافة المسلمين.

بـأيّ كتـابٍ أَمْ بـأيّـةِ سُنَّـةٍ   تـرى حبَّهـمْ عـارًا علـيَّ وتحسـبُ

فمـا لـيَ إلّا آلُ أحمـدَ شيعـةٌ   ومـا لـيَ إلّا مَشْعَبُ الحـقّ مَشْعَـبُ

والفرزدق على تقرّبه من الأمويّين مدح زين العابدين بن الحسين بن علي في حضرة الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك، فجعل حبّهم من الإيمان وبغضهم من الكفر، فهم أئمّة أهل التقى وخير أهل الأرض:

مـن معشـرٍ حبّهـمْ ديـنٌ وبغضهـمُ   كفـرٌ وقـربهُـمُ منجـىً ومعتصَـمُ

إنْ عُـدَّ أَهْـلُ التّقـى كـانـوا أئمّتهـم   أو قيل من خيرُ أهلِ الأرضِ قيلَ هُمُ

ولما كان القرن الرابع الهجري، استولى الحمدانيّون على الجزيرة وحلب، وجعلوا من هذه الربوع منابر لمدح آل البيت والمطالبة بالثأر لهم، وحشدوا شعراءهم لمدح الشيعة والتفجّع على ما حلّ بهم من أمثال السريّ الرفّاء والوأواء الدمشقي والصنوبري وأبي فراس الحمداني الذي قال:

شـافعـي أحمـدُ النبـيُّ ومـولا   يَ علـيٌّ والبنـت والسّبطـان[1]

والإمـام المهـديّ فـي يـوم لا ينـ   ـفَـعُ إلا غفـرانُ ذي الغفـرانِ

وقد تحوّل شعر هؤلاء الشعراء إلى شعر سياسي في لغة عصرنا يهاجم العباسيين وينتصر لآل البيت وخاصة عند الصنوبري الذي يُعتبر من أطول شعراء بني حمدان نفسًا في مدح آل البيت.

---

(١) البنت: فاطمة بنت الرسول (ﷺ)، والسّبطان: الإمامان الحسن والحسين رضي الله عنهما.

أما الشريف الرضيّ فإنه على طريقة الصنوبري وأبي فراس يتوجّع للفواجع التي حلّت بالشّيعة ويهدّد بالثأر والانتقام ويندّد بالقاتلين في قصائد باكية، حزينة، تشبه الرثاء والتفجّع، أعادت إلى الأذهان سيرة الجاهليّة في العصبيّة والقبليّة.

وقد اقتفى مهيار الديلمي آثار من سبقه من زملائه الشعراء وغلب على شعره البكاء والتفجّع، وجعل القضيّة دينيّة صرفة. وقد تجمّع من هذه القصائد في آل البيت كتب عديدة عمل القدماء على جمعها وتبويبها فانتشرت في كثير من أصقاع العرب.

حسّان بن ثابت في مدح النبيّ (ﷺ)

هو حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجيّ الأنصاريّ (... - ٥٤ هـ / ٦٧٤ م)، الصحابيّ، شاعر النبي (ﷺ). قال أبو عبيدة: فَضُلَ حسّانُ الشعراء بثلاثة، كان شاعر الأنصار في الجاهليّة، وشاعر النبيّ (ﷺ) في النبوّة، وشاعر اليمانيّين في الإسلام.

ومن مدائحه النبويّة نثبت القصيدتين التاليتين:

(من ثاني الطويل مطلق مجرد موصول والقافية متدارك)

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ[1]

وَضَمَّ ٱلإِلٰهُ ٱسْمَ النَّبِيِّ إِلَى ٱسْمِهِ إِذَا قَالَ في ٱلْخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ[2]

---

(١) أغرّ: كريم الأفعال واضحها على المثل، والأغر من الغرّة بياض الوجه، وقوله: «عليه للنبوة خاتم من الله» يجوز أن يكون المراد: عليه من إشراقه وتلألؤه ومن جميع خصاله طابع النبوة يلوح ويشاهد، وأن يكون المراد خاتم النبوة على حقيقته، وخاتم النبوة، بفتح التاء وكسرها، قيل إنّه شامة خضراء أو سوداء محتفرة في اللحم وقيل كغدة عند غضروف كتفه اليسرى. قيل: ولد عليه السلام به، قيل: بعد أن ولد، والذي يظهر أنّه من اختصاصه ﷺ لأنه إشارة إلى أنه خاتم النبيين.

(٢) قوله: «إذا قال في الخمس المؤذن أشهد» بيان لقوله: «وضم الإله اسم النبي لاسمه»، وذلك أنّ المؤذّن يقول في كل صلاة من الصلوات الخمس: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله.

وَشَقَّ لَهُ مِن اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ	فَذُو ٱلْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهٰذَا مُحَمَّدُ(١)
نَبيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ	مِنَ الرُّسْلِ وَٱلأَوْثَانُ فِي الأَرْضِ تُعْبَدُ(٢)
فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا	يَلُوحُ كما لَاحَ الصَّقِيلُ ٱلمُهَنَّدُ(٣)
وَأَنْذَرَنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً	وَعلَّمَنَا ٱلإِسلَامَ فَٱللهَ نَحْمَدُ(٤)
وَأَنْتَ إِلٰهَ الخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي	بِذٰلِكَ ما عَمَّرْتُ في النَّاسِ أَشْهَدُ(٥)
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا	سِوَاكَ إِلٰهًا أَنْتَ أَعْلَى وَأَمْجَدُ
لَكَ ٱلخَلْقُ والنَّعْمَاءُ والأَمْرُ كُلُّهُ	فَإِيَّاكَ نَسْتَهْدِي وإِيَّاكَ نَعْبُدُ(٦)

★ ★ ★

وَٱللهِ رَبِّي لَا نُفَارِقُ مَاجِدًا	عَفَّ ٱلْخَلِيقَةِ مَاجِدَ ٱلأَمْجَادِ(١)

---

(١) قوله: «فذو العرش محمود» بيان لقوله: «وشق له من اسمه»، وهذا البيت ليس من قول حسّان، وإنّما هو لأبي طالب ضمَّنه حسان شعره، واصل البيت: شقّ له دون واو على أنّ فيه خرمًا، أي حذف حرف من أوله، وهو الواو.

(٢) الفترة ما بين كل رسولين من رسل الله عزّ وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة وقوله: «والأوثان» الواو واو الحال، والأوثان جمع «وثن».

(٣) الصقيل المهنّد: السّيف المصقول.

(٤) الإنذار: الاعلام والتحذير مما يخاف منه، والمنذر المخوّف المحذّر. وقوله: «وبشر جنة» تقول: بشره وأبشره، فبشر به فرح، والبشارة المطلقة لا تكون إلّا بالخير.

(٥) إله الخلق: يا اله الخلق، وقوله: بذلك متعلق بقول: «أشهد».

(٦) فالخلق في كلام العرب ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكلّ شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه، ونعمة الله ونعماؤه منه وما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه إيّاه من نعمه الظاهرة والباطنة.

(٧) عفّ الخليقة: فالعفّة الكفّ عمّا لا يحل وعن كل ما لا يجمل وسيدنا رسول الله عفيف بخلقته لا يتعمل لذلك.

مُتَكَـرِّمًـا يَـدْعُـو إِلـى رَبِّ الْعُلَـى بَـذْلَ النَّصِيحَـةِ رَافِـعَ ٱلأَعْمَـادِ[1]
مِثْـلَ ٱلْهِلَالِ مُبَـارَكًـا ذَا رَحْمَـةٍ سَمْـحَ ٱلخليقَـةِ طَيِّـبَ ٱلأَعْـوَادِ[2]
إِنْ تتْـرُكُـوهُ فـإِنَّ ربـي قَـادِرٌ أَمْسَى يَعُـودُ بِفَضْلِـهِ ٱلْعَـوَّادِ[3]
وَٱللهِ رَبِّـي لاَ نُفَـارِقُ أَمْـرَهُ مَـا كـانَ عَيْشٌ يُـرْتَجَـى لِمَعَـادِ
لاَ نَبْتَغـي رَبًّـا سِـوَاهُ نَـاصِـرًا حَتـى نُـوَافِـي ضَحْـوَةَ ٱلْمِيعَـادِ

★ ★ ★

(١) بذل النصيحة: يجود بها عن طيبة خاطر وهو الناصح الأمين، ورافع الأعماد: يريد رافع عماد غيره إذ ينتصح بنصيحته ويتبع قوله، وهل ارتفع عماد أحد ارتفاع عماد أصحاب رسول الله، وفلان رفيع العماد يراد عماد بيت شرفه، والعرب تضع البيت موضع الشرف في النسب والحسب.

(٢) طيّب الأعواد: كريم النسب.

(٣) يعود بفضله العواد: عن العائدة، وهي ما عاد به عليك المفضل في صلة أو فضل.

كعب بن زهير في مدح النبيّ (ﷺ)

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المازنيّ (٠٠٠ - ٢٦ هـ / ٦٤٥ م) شاعر عالي الطبقة من أهالي نجد. كان مِمّن اشتهر في الجاهليّة. ولمّا ظهر الإسلام، هجا النبيّ (ﷺ)، وأقام يشبّب بنساء المسلمين، فهدر النبيّ دمه، فجاءه كعب مستأمنًا، وقد أسلم، وأنشده لاميّته المشهورة، فعفا عنه النبيّ (ﷺ)، وخلع عليه بردته. وقد كثر مُخَمّسو هذه اللّاميّة، ومشطّروها، ومعارضوها، وشرّاحها، وترجمت إلى الإيطاليّة، وفيما يلي مقتطفات منها:

بانت سُعاد

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي ٱلْيَوْمَ مَتْبُولُ   مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا، لَمْ يُفْدَ، مَكْبُولُ[1]

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا   إِلَّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ[2]...

---

(١) بانت: فارقت، ابتعدت. المتبول: الذي أسقمه الحب واضعفه. المتيم: الذي استولى عليه الهوى وذلله. المكبول: المقيد.

(٢) البين: الفراق. الأغن: شفة للظبي، وهو الذي يخرج صوته من خياشيمه. غضيض الطرف: فاتر الأجفان مسترخيها.

تَسْعَى ٱلْوُشَاةُ جَنابَيْهَا، وَقَوْلُهُمُ هَا أَنْتَ، يَا ٱبْنَ سُلْمَى، لَمَقْتُولُ(١)
فَقُلْتُ: «خَلُّوا سَبِيلي لَا أَبَا لَكُمُ فَكُلُّ ما قَدَّرَ ٱلرَّحْمٰنُ مَفْعُولُ(٢)
كُلُّ ٱبْنِ أُنْثَى، وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ(٣)

★ ★ ★

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ أَوْعَدَنِي وَٱلْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ مَأْمُولُ(٤)
مَهْلًا هَدَاكَ ٱلَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ ٱلْقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ(٥)
لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ ٱلْوُشَاةِ، وَلَمْ أُذْنِبْ، وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ ٱلْأَقَاوِيلُ...
مَا زِلْتُ أَقْتَطِعُ ٱلْبَيْدَاءَ مُدَّرِعًا جِنْحَ ٱلظَّلَامِ، وَثَوْبُ ٱللَّيْلِ مَسْبُولُ(٦)
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أُنَازِعُهَا فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قَوْلُهُ ٱلْقِيلُ(٧)
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللهِ مَسْلُولُ(٨)
لَذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي، إِذْ أُكَلِّمُهُ وَقِيلَ: إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْؤُولُ(٩)

---

(١) الوشاة: ج الواشي وهم النمامون، وقد سعوا ليشوا به إلى النبي. جنابيها: أي سائرين من على جانبي ناقة كعب. لمقتول: أي إن النبي سيقتلك.
(٢) خلوا سبيلي: دعوني وحدي. لا أبا لكم: نوع من الدعاء.
(٣) آلة حدباء: نعش الميت.
(٤) أوعدني: هددني.
(٥) نافلة القرآن: عطية القرآن. التفصيل: التبيين.
(٦) جنح الظلام: الطائفة مس الليل؛ مدرعًا جنح الظلام: أي لابسًا الظلام كالدرع. ثوب الليل مسبول: أي ظلام الليل شامل الموجودات.
(٧) ما أنازعها: أي لا أجذبها. القيل: أي القول الحق.
(٨) أي انه سيف هدى. لما سمع محمد هذا البيت خلع على الشاعر بردته.
(٩) لذاك: أي النبي. أهيب: أكثر هيبة. منسوب: ستسأل عن نسبك أمام النبي. مسؤول: أي أنت مسؤول عن التهم الموجهة إليك.

مِنْ خَادِرٍ مِنْ لُيُوثِ ٱلْأَرْضِ ، مَسْكِنُهُ   مِنْ بَطْنِ عَثَّرَ، غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ[1]
يَغْدُو فَيَلْحَمُ ضِرْغَامَيْنِ ، عَيْشُهُمَا   لَحْمٌ مِنَ ٱلْقَوْمِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلُ[2]

(١) الخادر: الأسد في خدره أي في عرينه. ليوث: ج ليث: أسد. عثر: مكان مشهور بالأسود. غيل: خبر تان لـ« مسكنه » وهو بمعنى: الاجمة. وغيل دونه غيل بمعنى: أجمة أمامها أجمة، أي مسكن ذلك الليث هو وسط غابات مترامية الأطراف.

(٢) يغدو: يذهب غدوة، أي صباحًا. يلحم: يطعم اللحم. ضرغام: أسد. ـ يقول: يذهب صباحًا إلى الصيد ليطعم شبليه من لحم البشر. معفور: ممرغ بالتراب. خراديل: ج خردلة: قطعة لحم صغيرة.

أحمد شوقي في المديح النبويّ

هو أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي بن أحمد (١٨٦٨ م / ١٢٨٥ هـ - ١٩٣٢ / ١٣٥١ هـ). مولده ووفاته في القاهرة. عاش حياته كلها للشعر يستوحيه من المشاهدات والحوادث. وعالج أكثر فنونه، فجرى شعره على كلّ لسان. من آثاره «الشوقيّات»، وهو ديوان شعره، و«دول العرب»، و«مصرع كليوباطرة»، و«عنترة» و«مجنون ليلى»، و«قمبيز»، وغيرها.

وله ثلاث قصائد مشهورة في المديح النبويّ.

وفيما يلي قصيدته الهمزيّة في مدح النبيّ (ﷺ)، ثم بائيّته المشهورة.

الهمزيّة النّبويّة

وُلِدَ الهُدَى، فالكَائِنَاتُ ضِيَاءُ ... وفَمُ الزّمانِ تَبَسُّمٌ وثَنَاءُ

الرُّوحُ والمَلأُ المَلائِكُ حَوْلَهُ ... للدِّينِ والدُّنْيَا بِهِ بُشَرَاءُ[1]

والعرشُ يَزْهُو، والحظِيرَةُ تَزْدَهِي ... والمُنْتَهَى، والسِّدْرَةُ العَصْمَاءُ[2]

---

(١) الروح الأمين: لقب جبريل. والملأ: الاشراف. والملائك: الملائكة. وبشراء: جمع بشير.

(٢) يزهو: يشرق. وسدرة المنتهى: يقال انها شجرة نبق على يمين العرش.

وَحَدِيقَةُ الفُـرْقَـانِ ضَـاحِكَـةُ الرّبـا بـالتـرجمـان، شَـذِيَّـةٌ، غنَّـاءُ[1]
والوَحْيُ يَقْطُـرُ سَلْسًلا مِـنْ سَلْسَـلٍ واللَّـوْحُ والقَلَـمُ البَـديـعُ رُوَاءُ[2]
نُظِمَتْ أَسامي الرُّسْلِ فَهْـيَ صَحِيفَـةٌ في اللَّوْحِ، واسمُ مُحَمّدٍ طُغـراءُ[3]
اسمُ الجَلاَلَـةِ فـي بَـدِيـعِ حُـرُوفِـهِ أَلِفٌ هُنَـالِـكَ، واسـمُ (طَـه) البـاءُ

★ ★ ★

يا خَيْـرَ مَـنْ جـاءَ الوُجُـودَ، تَحِيَّـةً مِنْ مُرسَلينَ إلى الهُدَى بـكَ جـاؤُوا
بَيْـتُ النبيّيـنَ الّذِي لا يَلْتَقـي إلا الحَنَـائِـفُ فيـه وَالحُنَفَـاءُ[4]
خَيْـرُ الأُبـوَّةِ حـازَهُـم لَـكَ (آدمٌ) دونَ الأَنـامِ، وأَحْـرَزَتْ حَـوَّاءُ
هُـمْ أَدْرَكُـوا عِـزَّ النُّبُـوَّةِ وَانْتَهَـتْ فيهـا إليـكَ العِـزَّةُ القَعْسَـاءُ[5]
خُلِقَتْ لِبَيْتِـكَ، وَهْـوَ مَخْلُـوقٌ لهـا إنَّ العظـائِـمَ كُفْـؤُهـا العُظَمَـاءُ
بِـكَ بَشَّـرَ اللهُ السَّمَـاءَ فـزُيِّنَـتْ وَتَضَـوَّعَـتْ مِسْكًـا بِـكَ الغَبْـرَاءُ[6]
وَبَـدا مُحَيَّـاكَ الّذِي قَسَمَـاتُـهُ حَـقٌّ، وغُـرَّتُـهُ هُـدًى وحَيَـاءُ[7]
وعَلَيْـهِ مِـنْ نُـورِ النُّبُـوَّةِ رَوْنَـقٌ ومِـنَ الخَليـلِ وهَـدْيِـهِ سِيَمَـاءُ[8]

---

(١) الربا: جمع ربوة. وهي ما ارتفع من الأرض.
(٢) الرواء ماء الوجه وحسن المنظر.
(٣) الطغراء: ما يسميه العامة «طرة» وأصلها طغرى بالقصر، وهي التي تكتب بالقلم الغليظ في صدر الأوامر.
(٤) الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام وكل من كان على دين ابراهيم عليه السلام، والجمع حنفاء، والمؤنث حنيفة، وجمعها حنائف.
(٥) القعساء: المنيعة الثابتة.
(٦) تضوع المسك: انتشرت رائحته. والغبراء: الأرض.
(٧) القسمة ما بين الوجنتين والأنف، وجمعها قسمات.
(٨) الخليل: ابراهيم عليه السلام.

أَثْنَى المسيحُ عَلَيْهِ خَلْفَ سَمَائِهِ ... وَتَهلَّلَتْ واهتزَّتِ العذراءُ[1]

يَوْمٌ يَتِيهُ على الزَّمانِ صَبَاحُهُ ... ومَسَاؤُهُ بمحمَّدٍ وَضَّاءُ

الحقُّ عَالي الرُّكْنِ فيهِ، مُظَفَّرٌ ... في المُلكِ، لا يَعْلُو عَلَيْهِ لِوَاءُ

ذُعِرتْ عُرُوشُ الظَّالِمِينَ، فزُلزِلَتْ ... وعَلَتْ على تِيجانِهِمْ أَصْدَاءُ

وَالنَّارُ خاوِيَةُ الجَوَانِبِ حَوْلَهُمْ ... خَمَدَت ذوائِبُها، وَغَاضَ الماءُ[2]

والآيُ تَتْرَى، والخَوارِقُ جَمَّةٌ ... (جِبْرِيلُ) رَوَّاحٌ بها غَدَّاءُ[3]

نِعْمَ اليتيمُ بَدَتْ مَخايلُ فَضْلِهِ ... واليُتمُ رِزْقٌ بَعْضُهُ وذَكاءُ[4]

في المَهْدِ يُسْتَسْقَى الحيَا بِرَجَائِهِ ... وَبِقَصْدِهِ تُسْتَدْفَعُ البَأْساءُ[5]

بِسِوَى الأَمانَةِ في الصِّبا والصِّدْقِ لَمْ ... يَعْرِفْهُ أَهْلُ الصِّدْقِ والأُمَنَاءُ

يا مَنْ لَه الأَخلاقُ ما تهوَى العُلَا ... مِنْهَا وَمَا يَتعَشَّقُ الكُبَراءُ

لَوْ لَمْ تُقِمْ دينًا لَقَامَتْ وَحْدَها ... ديناً تُضِيءُ بِنُورِهِ الآناءُ

زانَتْكَ في الخُلْقِ العَظِيمِ شمائلٌ ... يُغْرَى بهنّ ويُولَعُ الكُرَماءُ

أَمّا الجمالُ فأَنْتَ شَمْسُ سَمائِهِ ... وَمَلَاحَةُ (الصِّدِّيقِ) مِنْكَ أَياءُ[6]

والحُسْنُ مِنْ كَرَمِ الوُجُوهِ، وَخَيْرُهُ ... ما أُوتِيَ القُوّادُ والزُّعَمَاءُ

---

(١) العذراء السيدة مريم.

(٢) خمدت النار: سكن لهيبها. والذوائب جمع ذؤابة، وهي أعلى كل شيء والمراد بالذوائب هنا ألسنة اللهيب.

(٣) تترى: تتوالى. ورواح غداء أي يروح ويغدو.

(٤) المخيلة: المظنة.

(٥) استسقى الرجل: طلب السقي. والحيا: المطر.

(٦) أياء الشمس واياتها: نورها وحسنها.

فإذا سَخَوتَ بَلَغْتَ بالجُودِ المَدَى وَفَعَلْتَ ما لا تَفْعَلُ الأنواءُ(١)
وإذا عَفَوْتَ فَقادِرًا، وَمُقَدَّرًا لا يَسْتَهِينُ بِعَفْوِكَ الجُهَلاءُ
وإذا رحِمْتَ فأَنْتَ أُمٌّ، أو أَبٌ هٰذَانِ في الدُّنْيا هُمَا الرُّحَمَاءُ
وإذا غَضِبْتَ فإنَّما هِيَ غَضْبَةٌ في الحَقِّ، لا ضِغْنٌ وَلاَ بَغْضَاءُ(٢)
وإذا رَضِيتَ فَذَاكَ في مَرْضَاتِهِ ورِضَى الكَثيرِ تحلُّمٌ ورياءُ(٣)
وإذا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِزَّةٌ تَعْرُو النَّدِيَّ، ولِلْقُلوبِ بُكَاءُ(٤)
وإذا قَضَيْتَ فلا ٱرْتِيَابَ، كأَنَّما جَاءَ الخُصُومَ مِنَ السَّماءِ قَضَاءُ
وإذا حمَيْتَ الماءَ لم يُورَدْ، ولو أَنَّ القَيَاصِرَ والمُلُوكَ ظِماءُ
وإذا أجَرْتَ فَأَنْتَ بَيْتُ اللهِ، لم يَدْخُلْ عَلَيْهِ المُسْتَجِيرَ عداءُ
وإذا مَلَكْتَ النَّفْسَ قُمْتَ بِبِرِّها وَلَوَ آنّ ما مَلَكَتْ يَدَاكَ الشاءُ
وإذا بَنَيْتَ فَخَيْرُ زَوْجٍ عِشْرَةً وإذا ٱبْتَنَيْتَ فَدُونَكَ الآباءُ(٥)
وإذا صَحِبتَ رأى الوفاءَ مُجَسَّمًا في بُرْدِك الأَصْحَابُ والخُلَطَاءُ
وإذا أخَذْتَ العَهْدَ، أو أعْطَيْتَهُ فَجَميعُ عَهدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ
وإذا مَشَيْتَ إلى العِدَا فَغَضَنْفَرٌ وإذا جَرَيْتَ فإنَّكَ النكباءُ(٦)
وتَمُدُّ حِلمَكَ للسَّفيهِ مُدارياً حتّى يَضِيقَ بِعِرْضِكَ السُّفَهَاءُ

---

(١) النوء: المطر.
(٢) الضغن: الحقد.
(٣) التحلم، تكلف الحلم.
(٤) الندى: النادى.
(٥) بنى بأهله: زف اليهم. وابتنى: صار له بنون.
(٦) غضنفر: أسد. والنكباء: ريح بين ريحين.

في كلِّ نفسٍ من سُطاكَ مَهابةٌ ... وَلِكُلِّ نفسٍ في نَداكَ رجاءُ[1]
والرأيُ لَمْ يُنْضَ المُهنَّدُ دُونَهُ ... كالسَّيْفِ لَمْ تَضْرِبْ بِهِ الآراءُ[2]

★ ★ ★

يـأيها الأمِّيُّ، حَسْبُكَ رِتْبَةً ... في العِلْمِ أنْ دانَتْ بِكَ العُلَماءُ[3]
الذِّكْرُ آيةُ ربِّكَ الكُبْرَى الَّتي ... فيها لِبَاغِي المُعْجِزَاتِ غَنَاءُ[4]
صَدْرُ البَيانِ له إذا ٱلْتَقَتِ اللُّغَى ... وَتَقَدَّمَ البُلَغَاءُ والفُصَحَاءُ[5]
نُسِخَتْ بِهِ التَّوْرَاةُ وَهْيَ وَضِيئَةٌ ... وَتَخَلَّفَ الإنجيلُ وهو ذُكَاءُ[6]
لمّا تَمَشَّى في (الحجاز) حَكيمُهُ ... فُضَّت (عُكاظُ) به، وَقَامَ حِراءُ[7]
أَزْرَى بِمَنْطِقِ أَهْلِهِ وَبَيَانِهِمْ ... وَحْيٌ يُقَصِّرُ دُونَهُ البُلَغَاءُ[8]
حَسَدُوا، فقالوا: شاعرٌ، أو ساحرٌ ... وَمِنَ الحَسُودِ يَكُونُ الاَسْتِهْزَاءُ
قَدْ نَالَ (بالهادي) الكَريمِ و(بالهُدَى) ... ما لم تَنَلْ مِنْ سُؤْدُدٍ سِينَاءُ
أَمْسَى كَأَنَّكَ مِنْ جَلَالِكَ أُمَّةٌ ... وكأنَّهُ مِنْ أنسِهِ بَيْداءُ
يُوحَى إلَيْكَ الفَوْزُ في ظُلُماتِهِ ... مُتَتَابِعًا، تُجْلَى بِهِ الظَّلْمَاءُ
دينٌ يُشَيَّدُ آيةً في آيةٍ ... لَبِنَاتُهُ السُّوراتُ والأَضواءُ

---

(١) سطا: جمع سطوة.
(٢) نضا السيف من غمده. سله والمهند: السيف المطبوع من حديد.
(٣) دان به، اتخذه دينًا.
(٤) الباغي: الطالب. والغناء: ما يغني.
(٥) اللغى: جمع لغة.
(٦) ذكاء: من أسماء الشمس.
(٧) حراء: الغار الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ ونزل عليه فيه الوحي.
(٨) أزرى به: عابه.

الحقُّ فيه هـو الأسـاسُ، وكيـف لا ... واللهُ جـــلَّ جَلَالُـــهُ البَنَّـــاءُ؟
أمَّا حـديثُـكَ فـي العُقُـولِ فَمَشْـرَعٌ ... والعِلْـمُ والحِكَـمُ الغَـوَالي المـاءُ[1]
هو صِبغَةُ الفُرْقَـانِ، نَفْحَـةُ قُـدْسِـهِ ... والسيـنُ مِـنْ سُـوراتِـهِ والراءُ[2]
جَرَتِ الفَصَاحَةُ مِـنْ يَنَـابِيـعِ النُّهَـى ... مِـنْ دَوْحِـه، وتَفَجَّـرَ الإنشـاءُ[3]
فـي بَحْـرِهِ للسّـابِحِيـن بـه علـى ... أَدَبِ الحَيَـاةِ وَعِلْمِهـا إرْسَـاءُ
أَتَـتِ الدُّهُـورُ علـى سُلافَتِـهِ، وَلَـمْ ... تَفْـنَ السُّلافُ، ولا سلا النُّـدَمـاءُ[4]
بِكَ يا ابْنَ عبدالله قـامَـتْ سَمْحَـةٌ ... بالحـقِّ مـن مِلَـلِ الهُـدَى غـرّاءُ[5]
بُنِيَتْ على التَّوْحِيـدِ، وَهْـيَ حَقِيقَـةٌ ... نـادَى بهـا سُقْـرَاطُ والقُـدَمـاءُ
وَجَدَ الزُّعافَ مـن السُّمُـومِ لأَجْلِهـا ... كـالشَّهْـدِ، ثُـمَّ تَتَـابَـعَ الشُّهَـداءُ
وَمَشَى على وَجْـهِ الزَّمَـانِ بِنُـورِهـا ... كُهَّـانُ وَادِي النّيـلِ والعُـرفـاءُ[6]
إيزيسُ ذاتُ المُلْكِ حينَ تَـوَحَّـدَتْ ... أَخَـذَتْ قِـوامَ أُمُـورِهَـا الأشيـاءُ[7]
لمّـا دَعَـوْتَ النـاسَ لبَّـى عـاقِـلٌ ... وأَصَـمَّ مِنْـكَ الجـاهِلِيـنَ نِـدَاءُ
أَبَوا الخُـرُوجَ إلَيْـكَ مِـنْ أَوْهـامِهِـمْ ... والنّـاسُ فـي أَوْهَـامِهِـمْ سُجَنَـاءُ
ومـن العُقُـولِ جَـداوِلٌ وَجَلامِـدٌ ... ومِـنَ النُّفُـوسِ حَـرَائِـرٌ وإمـاءُ[8]

---

(١) مشرع: مورد.
(٢) الصبغة: النوع.
(٣) الدوح: الشجر العظيم المتسع.
(٤) السلاف والسلافة: أفضل الخمر.
(٥) السمحة: الملة التي ليس فيها ضيق.
(٦) العراف: المنجم، والجمع عرفاء.
(٧) ايزيس: من آلهة المصريين القدماء.
(٨) الجدول: النهر الصغير، والجلمود: الصخر.

داءُ الجَمَاعةِ مِنْ أرسطاليسَ لَمْ ... يُوصَفْ لَهُ حتّى أتَيْتَ دَوَاءُ
فَرَسَمْتَ بَعْدَك للعِبادِ حُكُومةً ... لا سُوقةٌ فيها ولا أُمَراءُ
اللهُ فَوقَ الخَلْقِ فيها وَحْدَهُ ... والناسُ تَحْتَ لِوائِها أكْفاءُ
والدِّينُ يُسْرٌ، والخِلافةُ بيعَةٌ ... والأمْرُ شُورَى، والحُقوقُ قضاءُ
الإشتراكيونَ أنتَ إمامُهمْ ... لولا دَعاوى القومِ والغُلَواءُ[1]
داويْتَ مُتَّئِدًا، وداوَوا ظَفْرةً ... وأخفُّ من بعضِ الدواءِ الداءُ[2]
الحربُ في حقٍّ لديك شريعةٌ ... ومن السُّمومِ الناقعاتِ دواءُ[3]
والبرُّ عندكَ ذِمَّةٌ، وفريضةٌ ... لا مِنَّةٌ مَمْنونةٌ وجَباءُ[4]
جاءَتْ فوحَّدَتِ الزكاةُ سبيلَهُ ... حتّى التقى الكُرَماءُ والبُخَلاءُ
أنْصَفْتَ أهلَ الفَقْرِ مِنْ أهلِ الغنى ... فالكُلُّ في حقِّ الحياةِ سَواءُ
فَلَوَ اَنَّ إنسانًا تخيَّرَ مِلَّةً ... ما اختارَ إلا دينَكَ الفُقَراءُ

★ ★ ★

يا أيّها المُسرَى به شَرَفًا إلى ... ما لا تنالُ الشمسُ والجوْزاءُ[5]
يَتَساءَلون ـ وأنتَ أطهرُ هيكلٍ ـ ... : بالروحِ أم بالهيكلِ الإسراءُ؟[6]
بهما سَمَوْتَ مُطَهَّرَيْن، كلاهما ... نُورٌ، وريحانيَّةٌ، وبهاءُ

---

(١) الغلواء: الغلوّ.
(٢) متئدًا: متأنيًا. وظفر: وثب.
(٣) الناقعات: القاتلات.
(٤) البر: الاحسان. وذمة: عهد. والمنة: العطية، والممنونة: المتبوعة بالمن.
(٥) الاسراء: السير ليلًا.
(٦) الهيكل الجسم والصورة والشخص.

فضلٌ عليكَ لذي الجلالِ ومِنَّةٌ والله يَفعَلُ ما يرى ويشاءُ
تَغْشَى الغُيوبَ منَ العوالمِ، كلَّما طُويَتْ سماءٌ قُلِّدَتْكَ سماءُ[1]
في كلِّ مِنطقةٍ حواشي نورها نونٌ، وأنْتَ النُّقْطةُ الزَّهْراءُ
أنتَ الجمالُ بها، وأنت المجتلي والكفُّ، والمِرآةُ، والحسناءُ
الله هَيَّأَ من حظيرةِ قُدسِهِ نزلًا لذاتك لم يَجُزْهُ علاءُ
العرشُ تحتكَ سُدَّةً وقوائمًا ومناكبُ الروحِ الأمينِ وطاءُ
والرُّسْلُ دون العرشِ لم يُؤذَنْ لهمْ حاشا لغيرِكَ موعدٌ ولقاءُ

★ ★ ★

الخَيْلُ تأبى غيرَ (أحمدَ) حاميًا وبها إذا ذُكِرَ اسْمُهُ خُيَلاءُ
شيخُ الفوارسِ يَعْلمونَ مكانَه إن هَيَّجتْ آسادَها الهَيْجَاءُ
وإذا تَصدَّى للظُّبى فمُهنَّدٌ أو للرِّماحِ فَصَعْدَةٌ سَمْراءُ[2]
وإذا رمَى عَنْ قَوسِهِ فَيَمينُهُ قَدَرٌ، وما تَرْمي اليمينُ قضاءُ
مِنْ كلِّ داعي الحَقِّ هِمَّةُ سيفِه فلِسَيْفِهِ في الراسياتِ مَضاءُ[3]
ساقي الجريحَ ومُطعمُ الأسرى، ومَنْ أمِنَتْ سَنابكَ خَيْلِهِ الأَشْلاءُ
إنَّ الشَّجاعةَ في الرجالِ غلاظةٌ ما لمْ تَزِنْها رأفةٌ وَسَخاءُ
والحربُ مِنْ شَرَفِ الشُّعوبِ، فإن بَغَوْا فالمجْدُ مما يدَّعونَ بَراءُ
والحَرْبُ يبعثُها القويُّ تجبُّرًا ويَنُوءُ تَحْتَ بَلائِها الضُّعَفاءُ

(١) غشي المكان يغشاه: أتاه.
(٢) الظبى: جمع ظبه، وهي حد السيف، والصعدة: القناة المستوية.
(٣) مضى السيف مضاء: قطع.

كَمْ مِنْ غَزاةٍ للرسولِ كريمةٍ   فيها رِضًى للحقِّ أو إعلاءُ
كانَتْ لجُنْدِ اللهِ فيها شِدَّةٌ   في إثْرِها للعالمينَ رَخاءُ
ضَرَبُوا الضلالةَ ضربةً ذَهَبَتْ بها   فعَلى الجهالةِ والضلالِ عَفاءُ
دَعَموا على الحربِ السلامَ، وطالما   حَقَنَتْ دِماءً في الزمانِ دِماءُ

★ ★ ★

الحقُّ عِرضُ اللهِ، كُلُّ أبيَّةٍ   بينَ النفوسِ حِمًى لَهُ وَوِقاءُ
هَلْ كان حولَ مُحَمَّدٍ من قومه   إلا صَبِيٌّ واحدٌ ونِساءُ؟
فدعا، فلبَّى في القبائلِ عُصْبَةٌ   مُسْتَضْعَفون، قلائِلٌ أنضاءُ[1]
رَدُّوا ببأسِ العزمِ عَنْهُ من الأذى   ما لا تَرُدُّ الصَّخْرةُ الصَّمّاءُ
والحقُّ والإيمانُ إن صُبّا على   بُردٍ ففيهِ كَتِيبةٌ خرساءُ[2]
نَسَفُوا بناءَ الشِّرْك، فَهْوَ خرائبٌ   واستأصلوا الأصنامَ، فَهْي هَباءُ[3]
يمشون تُغضِي الأرضُ منهم هيبةً   وبهم حِيالَ نعيمِها إغضاءُ
حتى إذا فُتِحَتْ لهم أطرافُها   لم يُطْغِهم تَرَفٌ ولا نَعْماءُ
يا مَنْ لهُ عِزُّ الشَّفاعةِ وَحْدَهُ   وهُو المنَزَّهُ، ما له شُفَعاءُ
عَرْشُ القيامَةِ أنتَ تَحْتَ لوائِهِ   والحوْضُ أنتَ حِيالَهُ السَّقاءُ
تُروي وتُسقي الصالحين ثوابَهم   والصالحاتُ ذخائرٌ وجزاءُ
ألمثْلِ هذا ذُقتَ في الدنيا الطَّوَى   وانشقَّ مِن خَلَقٍ عليكَ رِداءُ؟

---

(١) النضو: المهزول من الإبل وغيرها.
(٢) الكتيبة الخرساء: التي لا يسمع فيها صوت.
(٣) الهباء: الغبار.

لي في مديحِكَ يـا رسُـولُ عـرائسٌ — تُيِّمْـنَ فيـك، وشـاقهُـنَّ جَلاءُ[1]

هُنَّ الحسـانُ، فـإِن قَبِلْـتَ تكـرُّمًـا — فَمُهُـورهـنَّ شَفَـاعَــةٌ حَسنــاءُ

أنـت الذي نَظـمَ البـريَّـةَ دينُـهُ — مـاذا يَقـول وَيَنظُـمُ الشُّعــراءُ؟

المُصلِحـون أصـابـعٌ جُمِعـت يَـدًا — هي أنـت، بَـلْ أنـتَ اليَـدُ البيضـاءُ

ما جِئتُ بابكَ مـادحًـا، بـل داعيًـا — ومِـن المـديــح تضـرُّعٌ ودُعــاءُ

أدعُوك عن قومـي الضِّعـافِ لأزمـةٍ — فـي مثلِهـا يُلْقَـى عليـك رَجـاءُ

أدرى رسُــولُ اللهِ أنّ نفــوسَهـم — رَكِبَـتْ هَـواهـا، والقلـوبُ هـواءُ؟

مُتفَكِّكـونَ، فمـا تضـمُّ نفــوسَهُـمْ — ثِقَـةٌ، ولا جَمَـعَ القلــوبَ صفــاءُ

رَقَـدُوا، وَغَـرَّهُـم نعيـمٌ بـاطِـلٌ — وَنَعيـمُ قـومٍ فـي القيُــودِ بلاءُ

★ ★ ★

ظَلَمُـوا شـريعتَـك التـي نلنـا بهـا — مـا لـم يَنَـلْ فـي رُومـةَ الفُقَهــاءُ

مَشَتِ الحضارةُ في سَناها، واهتَـدَى — فـي الدِّيـنِ والدُّنيا بهـا السُّعــداءُ

صَلَّى عليك اللهُ مـا صحِـب الدُّجـى — حـادٍ، وحَنَّـتْ بـالفلا وَجْنـاءُ[2]

واستَقْبَـلَ الرِّضْـوانَ فـي غُـرفـاتِهم — بِجنِـانِ عَـدْنٍ آلُـك السُّمَحـاءُ

خيرُ الوسائِلِ، مَنْ يَقَـعْ منهُـم على — سَبَـبٍ إليـك فحسبِـيَ الزَّهـراءُ

---

(١) شاقه الحب: هاجه.

(٢) الوجناء: الناقة الشديدة.

ذكرى المولد

سَلُوا قَلْبِي غَداةَ سَلا وَثَابَا لَعَلَّ عَلَى الجَمَالِ لَهُ عِتابَا
وَيُسْأَلُ في الحَوادِثِ ذو صَوابٍ فَهَلْ تَرَكَ الجَمَالُ لَهُ صَوابَا؟
وكُنْتُ إذا سَأَلْتُ القَلْبَ يومًا تَوَلَّى الدَّمْعُ عَنْ قَلْبي الجَوابا
ولي بَيْنَ الضُّلُوعِ دَمٌ وَلَحْمٌ هُما الواهي الذي ثَكِلَ الشَّبابا[1]
تَسَرَّبَ في الدُّموعِ، فَقُلْتُ: وَلَّى وَصَفَّقَ في الضُّلوعِ، فَقُلْتُ: ثابا[2]
وَلَوْ خُلِقَتْ قُلوبٌ مِنْ حَديدٍ لَمَا حَمَلَتْ كَمَا حَمَلَ العذابا
وَأَحْبابٍ سُقِيتُ بِهِمْ سُلافًا وَكان الوَصْلُ من قِصَرٍ حَبابا[3]
ونادَمْنا الشَّبابَ على بِساطٍ مِنَ اللَّذاتِ مُخْتَلِفٍ شَرابا
وكُلُّ بِسَاط عَيْشٍ سَوفَ يُطوى وَإنْ طالَ الزَّمانُ بِهِ وَطَابا
كَأَنَّ القَلْبَ بَعْدَهُمُ غَريبٌ إذا عادَتْه ذِكْرى الأَهْلِ ذابا

---

(١) الواهي: الضعيف. وثكل الشباب: فقده. والمقصود بالدم واللحم هنا القلب.
(٢) ثاب: رجع بعد ذهاب.
(٣) السلاف: خالص الخمر. وحباب الماء: نفاخاته التي تعلوه.

ولا يُنْبِيكَ عَنْ خُلُقِ اللَّيالي ... كَمَنْ فَقَدَ الأَحِبَّةَ والصَّحابا
أَخا الدُّنيا، أَرَىٰ دنياك أَفْعَى ... تُبدِّلُ كُلَّ آوِنَةٍ إهابا
وأَنَّ الرُّقْطَ أَيْقَظُ هاجعاتٍ ... وأَتْرَعُ في ظلالِ السلم نابا[1]
وَمِنْ عَجَبٍ تُشَيِّبُ عاشِقيها ... وَتُفْنيهِمْ، وَمَا بَرِحَتْ كَعابا[2]
فمَنْ يَغْتَرُّ بالدُّنيا فإني ... لَبِسْتُ بها فَأَبْلَيْتُ الثيابا
لها ضَحِكُ القِيانِ إلى غَبِيٍّ ... وَلي ضَحِكُ اللبيبِ إذا تغابى[3]
جَنَيْتُ بِرَوْضِها وَرْدًا، وَشَوْكًا ... وَذُقْتُ بِكَأْسِها شُهْدًا، وَصَابا
فَلَمْ أَرَ غَيْرَ حُكْمِ اللهِ حُكْمًا ... وَلَمْ أَرَ دُوْنَ بابِ اللهِ بابا
ولا عَظَّمْتُ في الأَشْياءِ إلّا ... صَحيحَ العِلْمِ، والأَدَبَ اللُّبابا[4]
ولا كَرَّمْتُ إلَّا وَجْهَ حُرٍّ ... يُقلِّدُ قَوْمَهُ المِنَنَ الرِّغابا[5]
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جَمْعِ المالِ داءً ... ولا مِثْلَ البَخيلِ بِهِ مُصابا
فلا تَقْتُلْكَ شَهْوَتُه، وزِنْها ... كما تَزِنُ الطَّعامَ أَوِ الشَّرابا
وخُذْ لِبَنيكَ والأَيامِ ذُخْرًا ... وَأَعْطِ اللهَ حِصَّتَه احتسابا[6]
فَلَوْ طَالَعْتَ أَحْداثَ الليالي ... وَجَدْتَ الفَقْرَ أَقْرَبَها انتِيابا[7]

---

(١) الرقط: جمع رقطاء، وهي الحية على جلدها سواد مشوب بالبياض وأترع: أسرع إلى الشر.
(٢) الكعاب: الجارية الناهد.
(٣) القيان: جمع قينة، وهي الأمة المغنية.
(٤) اللباب: المختار الخالص.
(٥) الأرض الرغاب: التي لا تسيل الا من مطر كثير.
(٦) احتسب عند الله أمرا: قدمه.
(٧) انتابه: أتاه مرة بعد أخرى.

وَأَنَّ البِــرَّ خَيْــرٌ فــي حيــاةٍ وَأَبْقى بَعْـدَ صَـاحِبِـهِ ثَـوابـا
وَأَنَّ الشَّــرَّ يَصْــدَعُ فــاعِليـه وَلَـمْ أَرَ خَيِّـرًا بـالشَّـرِّ آبـا
فَـرِفْقًـا بـالبَنيـنِ إذا الليـالـي على الأَعْقـابِ أَوْقَعَـتِ العِقـابـا
وَلَـمْ يَتَقَلَّـدوا شُكْـرَ اليتـامـى ولا ادَّرَعـوا الدُّعـاءَ المُسْتَجَـابـا[1]
عَجِبْتُ لِمَعْشَـرٍ صَلُّـوا وَصَـامـوا عَـواهِـرَ، خِشْيَـةً وتُقَـى كِـذابـا[2]
وتُلفيهـمْ حِيـالَ المـالِ صُمًّـا إذا داعِـي الزَّكـاةِ بهِـمْ أَهـابـا[3]
لَقَـدْ كَتَمُـوا نصيـبَ اللهِ مِنْـهُ كَـأَنَّ اللهَ لَـمْ يُحْـصِ النِّصـابـا
ومَـنْ يَعْـدِلْ بحُـبِّ اللهِ شَيْئًـا كَحُبِّ المالِ؛ ضَـلَّ هـوًى وخـابـا
أَرَادَ اللهُ بـالفُقَـراءِ بِـرًّا وبـالأَيْتـامِ حُبًّـا وارتبـابـا[4]
فـرُبَّ صَغيـرِ قَـوْمٍ عَلَّمُـوهُ سَمَـا وحَمَـى المسوَّمـةَ العِـرابـا[5]
وَكَـانَ لِقَـوْمِـهِ نَفْعًـا وَفَخْـرًا وَلَـوْ تَـركـوه كـانَ أَذًى وَعَـابـا[6]
فَعَلِّـمْ مـا استَطَعْـتَ، لَعَـلَّ جيْلًا سَيَـأْتـي يُحـدِثُ العَجَـبَ العُجـابـا
ولا تُـرْهِـقْ شَبَـابَ الحَـيِّ يـأْسًـا فَـإنَّ اليـأْسَ يَخْتَـرِمُ الشَّبـابـا[7]
يُـريـدُ الخَـالِـقُ الرزْقَ اشتـراكًـا وإِنْ يكُ خَـصَّ أَقـوامًـا وَحَـابَـى[8]

---

(١) ادرع: لبس الدرع.
(٢) الكذاب: الكذب.
(٣) أهاب به: دعاه.
(٤) أرتب الصبي ارتبابا: ربّاه حتى أدرك.
(٥) الخيل المسومة: المرعية والخيل العراب: الكرائمْ.
(٦) العاب. العيب.
(٧) أرهقه طغيانا: أغشاه إياه. ويخترم الشباب: يستأصله.
(٨) حاباه: اختصه ومال اليه.

فمَا حَرَمَ المُجِدَّ جَنَى يَدَيْهِ ولا نَسِيَ الشقيَّ، ولا المُصابا[1]
ولَوْلا البُخلُ لَمْ يَهْلِكْ فَرِيقٌ عَلَى الأَقْدارِ تَلْقاهُمْ غِضابا
تعِبْتُ بِأَهْلِهِ لَوْمًا. وَقَبْلي دُعاةُ البِرِّ قد سَئِموا الخِطابا
وَلَوْ أني خَطَبْتُ على جَمادٍ فَجَرْتُ بِهِ اليَنابيعَ العِذابا
أَلم تَرَ للهواءِ جَرَىْ فأَفْضى إلى الأَكْواخِ، واخْتَرَقَ القِبابا؟[2]
وأَنَّ الشَّمْسَ في الآفاقِ تَغْشى حِمىْ كِسْرَى، كَمَا تَغْشى اليَبابا؟[3]
وأَنَّ الماءَ تُرْوَى الأُسْدُ مِنْهُ ويَشْفِي مِنْ تَلَعْلُعِها الكلابا؟[4]
وسَوَّى اللهُ بَيْنَكُم المنايا وَوَسَّدَكُمْ مَعَ الرُّسْلِ التُّرابا[5]
وَأَرسَلَ عائِلًا منكم يتيمًا دَنا مِنْ ذي الجَلالِ فَكانَ قابا[6]
نَبيُّ البِرِّ، بَيَّنَهُ سَبيلًا وَسَنَّ خِلالَهُ، وَهَدَىْ الشِّعابا[7]
تَفَرَّقَ بَعْدَ عِيْسَى الناسُ فيهِ فَلَمَّا جاءَ كانَ لَهُمْ مَتابا[8]
وشافي النَفْسِ مِنْ نَزَغاتِ شَرٍّ كَشافٍ مِنْ طَبائِعِها الذئابا[9]
وَكَانَ بَيانُهُ لِلْهَدْيِ سُبْلًا وَكَانَتْ خَيْلُهُ لِلْحَقِّ غابا

---

(١) الجنى، ما نجني من الشجر.
(٢) أفضى: بلغ.
(٣) اليباب: القفر.
(٤) تلعلع الكلب: دلع لسانه عطشا.
(٥) سوى: جعلكم فيها سواء.
(٦) عائلا: فقيرًا. وقاب القوس: ما بين المقبض والطرف، والمراد أنه كان قريبًا.
(٧) الشعاب: الطرق.
(٨) الضمير في «فيه» يعود إلى البر.
(٩) النزغات: الوساوس.

وَعَلَّمَنـا بِنـاءَ المجْـدِ، حَتَّـى … أَخَـذْنـا إِمْـرَةَ الأَرْضِ اغْتِصـابـا
وَمَـا نَيْـلُ المَطـالِـبِ بِـالتَّمَنِّـي … وَلَكِـنْ تُـؤْخَـذُ الدُّنْيـا غِلابـا[1]
ومـا استَعْصـى علـى قَـوْمٍ مَنـالٌ … إذا الإقْـدامُ كَـانَ لَهُـمْ رِكـابـا

★ ★ ★

تَجَلَّـى مَـوْلِـدُ الهَـادي، وَعَمَّـتْ … بَشَـائِـرُهُ البَـوادِيَ وَالقِصـابـا[2]
وَأَسْدَتْ لِلْبَـرِيَّـةِ بِنْـتُ وَهْـبٍ … يـدًا بَيْضـاءَ، طَـوَّقَـتِ الرِّقـابـا[3]
لَقَـدْ وَضَعَتْـهُ وَهّـاجًـا، مُنيـرًا … كَمَـا تَلِـدُ السَمـاواتُ الشِّهـابـا[4]
فَقَـامَ عَلَـى سمـاءِ البَيْـتِ نـورًا … يُضـيءُ جِبَـالَ مَكَّـةَ والنِّقـابـا[5]
وَضَـاعَـتْ يَثْـرِبُ الفَيْحـاءُ مِسْكًـا … وَفَـاحَ القَـاعُ أَرْجـاءً وَطَـابـا[6]
أَبَا الزَهْـراءِ، قَـدْ جـاوَزْتُ قَـدْري … بِمَـدْحِـكَ، بَيْـدَ أَنْ لـيَ انْتِسَـابـا
فَمَـا عَـرَفَ البَلاغَـةَ ذو بَيـانٍ … إذا لَـمْ يَتَّخِـذْكَ لَـهُ كِتـابـا
مَدَحْـتُ المـالكيـنَ، فَـزِدْتُ قَـدْرًا … فَحيـنَ مَـدَحْتُـكَ اقْتَـدْتُ السَّحـابـا
سَـأَلْـتُ اللهَ فـي أَبْنـاءِ دينـي … فَـإِنْ تَكُـنِ الوَسيلَـةَ لـي أَجـابـا
وَمَـا لِلْمُسْلميـنَ سِـواكَ حِصْـنٌ … إذا مَـا الضُـرُّ مَسَّهُـمُ ونـابـا
كَـأَنَّ النَحْسَ حِيـنَ جَـرَى عَلَيْهِـمْ … أَطـارَ بِكُـلِّ مَمْلَكَـةٍ غُـرابـا

(١) غلابا: قهرا.
(٢) القصابا: جمع قصبة، وهي المدينة.
(٣) بنت وهب: السيدة آمنة، أمه صلى الله عليه وسلم.
(٤) الشهاب: الكواكب.
(٥) نقاب: جمع نقب، وهو الطريق في الجبل.
(٦) ضاع المسك: تحرك فانتشرت رائحته.

وَلَـوْ حَفِظـوا سَبيلَـكَ كَـانَ نـوراً — وَكَانَ مِـنَ النُّحـوسِ لَهُـمْ حِجـابـا
بَنيْـتَ لَهُـمْ مِـنَ الأَخْلاقِ رُكْنًـا — فَخَانوا الرُّكْـنَ، فـانهـدَمَ اضطـرابـا
وَكَـانَ جَنـابُهُـمْ فيهـا مَهِيبًـا — وَلَلأَخْلاقُ أَجْـدَرُ أن تُهـابـا
فَلَـوْلاهـا لَسَـاوى اللَّيْـثُ ذئبًـا — وَسَـاوى الصَّـارِمُ المـاضـي قِـرابـا
فـإنْ قُـرِنَـتْ مَكـارِمُهـا بعلـمٍ — تـذلَّلـتِ العُلا بهمـا صعـابـا
وفـي هـذا الزمـانِ مَسيـحُ علـمٍ — يَـرُدُّ على بنـي الأُمـمِ الشبـابـا

الفصل الأول

مديح الملوك والخلفاء

أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع، فأثنى على الرجال المتفوّقين والشجعان المشهورين، وامتدح المثل العليا التي رآها عندهم. ولكنّه نظر إلى الملوك ومن يليهم منذ الجاهليّة نظرة إكبار واحترام لما بين عيشه وعيشهم من فرق شاسع، ولما بين بيته الصغير وقصورهم من مدى يبهر النظر ويسحر القلب. وقد رأى بأمّ عينه ما بين حياته الفقيرة وحياة الملوك من اختلاف أخذ بمجامع قلبه وحرّك لسانه بالإعجاب.

ففي الجاهليّة قام النابغة الذبياني بزيارة الملوك في الشام والعراق، ورأى مظاهر الترف والفخامة التي كان يعيش عليها هؤلاء الملوك، وعاد إلى قومه بصور تعبّر عن حبّه لهذه الربوع واحترامه لأهلها ولنظام حياتهم. إنّهم ملوك ولكنّهم إخوان يحكّمون الشّاعر الضيف بأموالهم فيشعر أنه بين أهله وأقاربه.

وقد كانت دهشة الشاعر عظيمة حين دخل إلى قصور الملوك، فنسب بناءها إلى الجنّ، فهو لم يشاهد من قبل أعمدة «تدمر» الشامخة، لذلك جعل للنعمان فضلًا على الناس جميعًا وجعله في كرمه شبيهًا بنهر الفرات حين يفيض ماؤه. ثم انتقل إلى تشبيه ممدوحه بالرّبيع في عطائه والسيف في مضائه:

وأنتَ ربيعٌ ينعشُ الناسَ سيبُهُ وسَيفٌ أُعيرتْهُ المنيَّةُ قاطعُ

أو إلى تشبيهه بالكواكب:

فـإنّـك شمسٌ والملـوكُ كـواكـــبٌ   إذا طَلَعَتْ لم يبـدُ منهـنّ كـوكـبُ

وقد أجمع النقّاد على القول إنّ النابغة هو أول المحترفين في فن المديح.

وقد سار الأعشى على سنّة النابغة، ولكنّه انحطّ إلى درك التكسّب المشين. ثم تبعه حسّان بن ثابت الذي مدح ملوك الغساسنة وامراءهم وذكر ديارهم العامرة ووصف ترفهم ونعيمهم، حتّى جاء الأخطل شاعر بني أميّة الذي أعاد صورة تدفّق الفرات حين مدح كرم عبد الملك بن مروان. ثم تبعه الفرزدق طامعًا في مدح خلفاء بني أميّة، وما لبث جرير أن لحق برفيقيه مستجديًا في مديحه حيث قال في بني أميّة بحضرة الخليفة عبد الملك:

أَلَسْتُـمْ خيـرَ مـن ركـبَ المطـايـــا   وأنـــدى العـــالميـــنَ بطـــونَ راحِ

ولمّا أطلّ العصر العبّاسي تزاحم الشعراء على أبواب الخلفاء يرجون النوال والعطاء، ولا سيما في مواسم الخلافة والملك وأعياد البلاط ومناسبات الحرب والسلم، فأضافوا على المعاني القديمة صورًا بديعة تتناسب مع متطلّبات الخلافة. فالخليفة كريم شجاع، مشرق الوجه، يصلح الفساد، ويأمر بالعدل والإحسان، يتعلّق بالدّين، ويؤمّن العدالة، ويبسط الأمن ويدافع عن الثغور. ولا ينسى الشاعر أن يذكر حسبه ونسبه ليصل في نهاية الأمر إلى أنّه خير من يمشي على قدم.

فها هو أبو العتاهية يمتدح هارون الرشيد قائلًا:

إذا نُكـبَ الإسلامُ يــومًــا بنكبــةٍ   فهـارونُ مـن بيـن البـريّـة نـاصِـرُهْ

ثمّ تبعه أبو تمّام فرأى في الخليفة مفتاح النصر والظفر. فديوانه حافل بالمديح والإشادة بالانتصارات والفتوحات، وقد خصّ بمدائحه الخلفاء: المعتصم والواثق والمأمون. ثم جاء البحتري بعد أستاذه لينبري للخليفة المعتز بالله ثم ينتقل بعده

إلى المهتدي فالمتوكّل. وأخيرًا أطلّ على مسرح الشعر أبو الطيّب المتنبّي فكان خير ممثّل لشعراء المديح، فانتقل من ملك إلى ملك ومن أمير إلى أمير وشهرته تسبقه، فاصطاد أبعد الصور وامتطى أجمل التعابير فختم على غيره من الشعراء وسدّ الباب على كبار شعراء المديح قبله وبعده.

وقد ظل شعر المديح المتكسّب يتردّد على مسامع النّاس بعد العصور العباسيّة، ولكنّه سجّل انحدارًا بعد هذا العلوّ الشاهق. فأصبح الشعراء يلحّون في طلب المال فيبيعون شعرهم ونفوسهم. وإن كان المتنبّي قد طلب في شعره ضيعة أو ولاية من ممدوحه فإنّ الشّاعر عمارة اليمني طلب من أحد الممدوحين قائلًا:

فَآمْنُنْ عليَّ بنصفِ الألفِ راتبةً | فَقَدْرُ ودّكَ لا يَحْويه مِقدَارُ
مقسومة في شهور العام تحمل لي | أقساطُها كلَّ شهرٍ وهي إدرارُ

فهو يطلب المبلغ ويرى قسمته على أشهر السنة أقساطًا يعيش بها شهريًّا. وهذا سقوط ظاهر في القول والعمل إلى مرتبة التسوّل.

وقد ظلّ شعراء القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يقلّدون الشعر القديم ويتّخذون من ألفاظه ومعانيه ميدانًا يرتعون فيه. فها هو البارودي يعيد للمديح أسلوبه المتين ووجهه الأصيل في مدح الخديوي، ثم يسير حافظ ابراهيم على منوال القدماء في نصرة الملوك للدين ورفعة الإسلام وتقليد الخلفاء الراشدين لعلّ الإسلام يستعيد مكانته ويرتفع لواؤه في كلّ جانب. ثم لا يلبث أحمد شوقي أن يحمل لواء المديح في هذا العصر، فيمتدح العظماء لعكوفهم على الدين ونصرتهم للإسلام، فهو كشعرائنا القدماء سواء بسواء. ولكنّ شوقي لا يقف عند هذه الحدود بل يعود إلى ماضي مصر فيمتدح ملوكها القدماء وينتقل إلى ملوك مصر المعاصرين.

الأخطل في مدح عبد الملك بن مروان

الشاعر هو غياث بن غوث التغلبيّ (١٩ هـ / ٦٤٠ م - ٩٠ هـ / ٧٠٨ م) شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أميّة بالشّام، وأكثر من مدح ملوكهم. وهو أحد الثلاثة المتَّفق على أنّهم أشعر عصرهم: جرير، والفرزدق، والأخطل. نشأ على المسيحيَّة، واتّصل بالأمويِّين، فكان شاعرهم.

وممدوحه هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأمويّ (٢٦ هـ / ٦٤٦ م - ٨٦ هـ / ٧٠٥ م). من أعاظم الخلفاء ودهاتهم، وهو أوّل من عرَّب الدواوين، وأوّل من نقش بالعربيَّة على الدراهم. نشأ في المدينة، وتوفِّي بدمشق.

★ ★ ★

إلى آمرىء لا تعدِّينا نَوَافِلُهُ ... أظْفَرَهُ اللهُ فَلْيَهْنِىءْ لَهُ الظَّفَرُ[1]

الخَائِضُ الغَمْرَ والمَيْمُونُ طائِرُهُ ... خَليفَةُ الله يُسْتَسْقَى بِهِ المَطَرُ[2]

وَمَا الفُرَاتُ إذا جاشَتْ حَوَالِبُهُ ... في حافَّتَيْهِ وفي أوْسَاطِهِ العُشَرُ[3]

---

(١) تعدّينا: تفوتنا. نوافله: عطاياه.

(٢) الغمر: الماء الغزير. الميمون طائره: كناية عن حسن الحظّ.

(٣) جاشت: هاجت. حوالبه: أمواجه. العشر: نوع من الشجر.

وَذَعْذَعَتْهُ رِياحُ الصيف وَٱضْطَرَبَتْ فَوْقَ الجآجِئ من آذِيِّهِ غُدُرُ(١)
مُسْحَنْفِرٌ مِنْ جِبَالِ الرُّومِ يَسْتُرُهُ منها أكافِيفُ فيها دُونَهُ زَوَرُ(٢)
يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْه حِينَ تَسْأَلُهُ ولا بِأَجْهَرَ منه حين يُجْتَهَرُ(٣)
مُفْتَرِشٌ كَٱفْتِراشِ اللَّيْثِ كَلْكَلَهُ لِوَقْعَةٍ كائِنٍ فيها لَهُ جَزَرُ(٤)
مُقَدَّمٌ مائَتي أَلْفٍ لِمَنْزِلِهِ ما إنْ رأى مِثْلَهُمْ جِنٌّ ولاَ بَشَرُ
يغشى القناطِرَ يَبْنِيها وَيَهْدِمُها مُسَوَّمٌ فَوْقَهُ الرّايَاتُ والقَتَرُ(٥)
حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ بِالطفِّ مَلْحَمَةٌ وبِالثَّوِيَّةِ لَمْ يَنْبَضْ بها وَتَرُ(٦)
وَتَسْتَبِينَ لأقْوَامٍ ضَلَالَتُهُمْ وَيَسْتَقِيمَ الذي في خَدِّهِ صَعَرُ(٧)
ثُمّ ٱسْتَقَلَّ بِأَثْقَالِ العِرَاقِ وَقَدْ كانَتْ لَه نِقْمَةٌ فيهِمْ ومدَّخَرُ(٨)
في نَبْعَةٍ من قُرَيشٍ يَعْصِبُونَ بها ما إنْ يُوَازَى بأعلى نَبْتِها الشَّجَرُ(٩)
تَعْلُو الهِضَابَ وحلُّوا في أرُومَتِهَا أهْلُ الرِّياءِ وأهْلُ الفَخْرِ إنْ فخرَوا(١٠)

---

(١) ذعذعته: حرّكته بعنف. الجآجيء: ج «جؤجؤ»، وهو الصدر. الآذيّ: الموج المرتفع.
(٢) مسحنفر: سريع. الأكافيف: المرتفعات. الزور: الاعوجاج.
(٣) أجهر: أعظم. يجتهر: يستعظم.
(٤) الكلكل: الصدر. الوقعة: المعركة. جزر: ما استبيح ذبحه.
(٥) مسوّم: فيه علامة مميّزة. القتر: الغبار.
(٦) الطفّ والثويّة: موضعان قرب الكوفة. لم ينبض بها وتر: كناية عن عدم استعمال القسيّ ورمي السهام.
(٧) صعر: كبرياء.
(٨) النقمة: البلاء الحسن. المدّخر: ما يخبّأ للأعداء من بطش وغيره.
(٩) النبعة: نوع من الشجر. يعصبون بها: يلتفون حولها. يوازي: يساوي.
(١٠) الأرومة: الأصل. الرِّياء. العظمة والشرف.

حُشْدٌ على الحقِّ عَيَّافو الخَنَى أنُـفٌ إذا أَلَمّتْ بِهِمْ مَكْـروهَـةٌ صَبَـرُوا[1]

أعْطَـاهُـمُ اللهُ جَـدًّا يُنْصَـرُونَ بِـهِ لا جَـدَّ إلّا صغيـرٌ بَعْـدُ مُحْتَقَـرُ[2]

لم يأشَـرُوا فيـه إذ كـانـوا مَـوَالِيَـهُ وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْـرِهُـمْ أشِـرُوا[3]

شُمْسُ العَـدَاوةِ حتَّـى يُسْتَقَـادَ لهـم وأعظمُ النّاسِ أحْلامًـا إذا قَـدِرُوا[4]

لا يَسْتَقِـلُّ ذَوُو الأضْغَـانِ حَـرْبَهُـمُ وَلَا يُبَيِّـنُ فـي عِيـدانِهِـمْ خَـوَرُ[5]

هُـمُ الذيـن يُبَـارُونَ الرِّيَـاحَ إذا قَلّ الطَّعَامُ على العافيـن أو قَتَـرُوا[6]

بَنِـي أمَيَّـةَ نُعْمَـاكُـمْ مُجَلَّلَـةٌ تَمَّـتْ فلا مِنَّـةٌ فيهـا ولا كَـدَرُ.

★ ★ ★

---

(١) حشدٌ: متأهّبون. عيّافو: كارهو. الخنى. الذلّ. أنف: مترفّعون عن الدنايا.

(٢) الجدّ: الحظ.

(٣) لم يأشروا: لم يبطروا. مواليه: أصحابه أوأهله.

(٤) شمس العداوة: أشدّاء. يستقاد لهم: يخضع لهم. أحلامًا: عقلًا.

(٥) ذوو الأضغان: أصحاب الحقد، أي الأعداء. خور: ضعف.

(٦) العافين: الفقراء.

جرير في مدح عبد الملك بن مروان

الشاعر هو جرير بن عطيّة اليربوعي (٦٤٠ م / ٢٨ هـ - ٧٢٨ م / ١١٠ هـ). أشعر أهْل عصره. عاش عمره يتبادل الهجاء وشعراء زمانه، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل. ورغم اشتهاره بالهجاء، حتّى عُدَّ أهجى شعراء العربيّة، فهو من أغزل الناس شعرًا. وفيما يلي نموذج من شعره المدحيّ.

وأمّا الممدوح فقد سبق التعريف به منذ قليل.

★ ★ ★

تَعَــزَّتْ أُمُّ حَــزْرَةَ ثــم قــالــتْ ... رأيــتَ المــورديــنَ ذوي لقــاحِ[1]

تُعَلِّــلُ وهْــيَ ســاغبــةٌ بَنِيهــا ... بــأنفــاسٍ مــن الشَّبِــمِ القَــراحِ[2]

سَــأمتــاحُ البُحــورَ فجَنِّبِينِــي ... أذاةَ اللَّــوْمِ وانتظــري امْتِيــاحــي[3]

ثقــي بــاللهِ ليسَ لــهُ شَــريــكٌ ... ومِــنْ عنــدِ الخليفــةِ بــالنَّجــاحِ

أَغِثْنــي يــا فَــداكَ أبــي وأُمِّــي ... بسَيْــبٍ منــكَ إنــك ذو ارتيــاحِ[4]

فــإنّــي قــد رأيْــتُ علــيَّ حقًّــا ... زيــارَتــيَ الخليفــةَ وامتِــداحــي

(١) أم حزرة: زوج جرير. الموردين: أي أصحاب الابل التي يوردونها الماء. اللقاح: جمع لقوح: الناقة الحلوب.

(٢) تعلل: تشغل وتلهى. ساغبة: جائعة. الشبم: البارد من الماء. القراح: الصافي.

(٣) متح الماء: استقاه واستخرجه من البئر، والمراد العطاء الذي يناله من الخليفة.

(٤) السيب: العطاء. الارتياح والأريحية: الاهتزاز للعطاء.

سأشكرُ إنْ رَددْتَ عليَّ ريشي | وأنْبَتَّ القَوادِمَ في جَناحي[١]
ألسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايَا | وأنْدَى العالمينَ بُطونَ راحِ[٢]
وقَوْمٍ قد سَمَوْتَ لهمْ فدانُوا | بِدَهْمٍ في مُلَمْلَمَةٍ رَداحِ[٣]
أبَحْتَ حِمَى تِهامةَ بعدَ نجْدٍ | وما شيءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَباحِ[٤]
لكُمْ شُمُّ الجبالِ منَ الرَّواسي | وأعْظَمُ سَيْلِ مُعْتَلِجِ البطاحِ[٥]
دَعَوْتَ المُلحِدينَ أبا خُبَيْبٍ | جماحًا هل شُفيتَ من الجِماحِ[٦]
فقد وجدوا الخليفةَ هِبْرِزِيًّا | ألَفَّ العِيصِ ليسَ من النّواحِي[٧]
فما شَجَراتُ عيصِكَ في قُرَيْشٍ | بِعَشّاتِ الفروعِ ولا ضَواحِي[٨]
رَأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا | وبيَّنْتَ المِراضَ من الصِّحاحِ[٩]

★ ★ ★

(١) القوادم: جمع قادمة: الريش في مقدم الجناح، وهو كبار الريش، الخوافي ضدها، والمراد سأشكر إن أكرمتني وأعززتني.

(٢) المطايا: جمع مطية. الراح: جمع راحة. بطن الكف.

(٣) سموت لهم: خرجت إليهم محاربا. دانوا: خضعوا. جيش دَهْم: كثير. كتيبة ململمة: كثيرة مجتمعة. رداح: ثقيلة فخمة.

(٤) أبحت: حللت. الحمى: ما يحميه الانسان ويمنعه.

(٥) شم الجبال: أعاليها. اعتلجت الأرض: طال نبتها، والأمواج: التطمت. البطاح: جمع بطحاء: مسيل واسع فيه حصى دقيق. يشير إلى أصالة نسبه وعظم سلطانه.

(٦) الملحد: المائل عن الدين الطاعن فيه. أبو خبيب: كنية عبدالله بن الزبير الخارج على بني أمية. جماحا: نافرين، والجماح: العناد والخلاف.

(٧) الهبرزي: الأسد. ألفّ: كثير ملتف. العيص: الشجر الكثير، والمراد الأصيل، النواحي: البعداء. أي وجدوك قويًا كريم الأصل.

(٨) العشات: جمع العشة: الشجرة اللئيمة المنبت الدقيقة القضبان الضواحي: جمع الضاحية: الشجرة البادية العيدان ولا ورق عليها.

(٩) البصيرة: العبرة والفطنة. المراض: جمع مريض: الباطل والمعوجّ وضده الصحيح.

أبو نواس في مدح هارون الرشيد

الشاعر هو الحسن بن هانئ (٧٦٢ م / ١٤٥ هـ - ٨١٣ م / ١٩٨ هـ). نشأ في البصرة يعبّ من العلوم بذكاء متوقّد، ويتتلمذ لبعض المجّان والخُلعاء. عاش في السكر واللهو والمجون. هو شاعر الخمرة بلا منازع، ومع ذلك قال الكثير من الغزل. والأنثى والخمرة متلازمان.

والممدوح هو هارون الرشيد ابن محمد (المهديّ) ابن المنصور العبّاسيّ (١٤٩ هـ / ٧٦٦ م - ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) خامس خلفاء الدولة العباسيّة في العراق. وأشهرهم. وكان عالمًا بالأدب، وأخبار العرب، والحديث، والفقه، شجاعًا، كثير الغزوات، حازمًا، كريمًا، لقّب بجبّار بني العبّاس، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على بابه من العلماء، والشعراء، والكتّاب، والنّدماء.

★ ★ ★

حَيِّ الدّيارَ، إذِ الزمانُ زمانُ ... وإذِ الشّباكُ لنا حَرىً ومَعانُ[1]

يا حبّذا سَفوانُ مِنْ مُتَربَّعٍ ... ولَرُبَّما جَمَعَ الهَوى سَفَوانُ[2]

---

(١) حَرَى: كَعَلى هو حراء جبل بمكة فيه غار تَحَنَّث فيه النبي (ﷺ). ومعان: موضع بطريق حاجّ الشام. والشِبّاك: جمع شبكة والمعنى أنّ في حرى ومعانَ شباك الهوى نُصِبْنَ لنا لِيَصطدْنَنا.

(٢) سفوان: موضع بالبصرة. المُتَرَبَّع: اسم للمكان الذي ينزله القوم أيام الربيع.

وإذا مـرَرْتَ علـى الدِّيـارِ مُسَلِّمًـا ... فَلِغَيْـرِ دارِ أُمَيْمَـةَ الهِجْـرانُ
إنّـا نَسَبْنـا، والمنـاسِـبُ ظِنَّـةٌ ... حتّـى رُميتِ بنـا وأنـتِ حَصـانُ[1]
لمّـا نـزَعْـتُ عـن الغَـوايـةِ والصِّبـا ... وخَدَتْ بـي الشَّـدنيَّـةُ المِـذْعـانُ[2]
سَبْـطٌ مَشافِـرُهـا، دقيـقٌ خَطْمُهـا ... وكـأنَّ سـائـرَ خَلْقِهـا بُنْيـانُ[3]
واحتازَها لـونٌ جَـرَى فـي جِلْـدِهـا ... يَقَقٌ كقِرطـاسِ الوليـدِ، هجـانُ[4]
وإلـى أبـي الأمنـاءِ هـارونَ الّذي ... يَحْيـا بصَـوْبِ سمـائِـهِ الحيـوانُ[5]
مَلِـكٌ تَصَـوَّرَ فـي القلـوبِ مِثـالُـهُ ... فكـأنّـه لـم يخْـلُ مِنْـهُ مكـانُ
مـا تَنْطـوي عنْـهُ القلـوبُ بِفَجْـرَةٍ ... إلا يُكَلِّمُـهُ بهـا اللَّحظـانُ[6]
فَيَظَـلُّ لاسْتِنْبـائِـهِ، وكـأنَّـهُ ... عَيْـنٌ علـى مـا غَيَّـبَ الكِتْمـانُ
هـارونُ أَلَّفنـا ائتِلافَ مَـوَدَّةٍ ... مـاتـتْ لهـا الأحْقـادُ والأضغـانُ
فـي كـلِّ عـامٍ غَـزْوَةٌ ووِفـادَةٌ ... تَنْبَـتُّ بيْـنَ نَـواهُمـا الأقْـرانُ[7]

---

(١) نسْبنا: شبّبْنا وتغزّلْنا. الظِّنَّـة: التُهمة. الحَصَان: المرأة العفيفة أو المتزوجة.
(٢) نزعت عن الغَواية: تركتْها وابتعدت عنها. وخَدَتْ: سارت. الشَدَنِيّة: الناقة منسوبة إلى موضع باليمن. المِذْعن: المطيعة الخاضعة.
(٣) السَّبْط: المُسترسِل ضد الجَعْد. المشافر للابل كالشفاه للإنسان. الخطم: الأنف: وإنما شبه خلقها بالبنيان لضخامتها وارتفاعها.
(٤) احتازها: ضمَّها وجمعها والمقصود شملها. يقق: شديد البياض. هجان: الهجان الخالص من كل شيء.
(٥) الحيوان: الحياة. قال تعالى: وإن الدار الآخِرة لَهِي الحَيَوان لو كانوا يعلمون. والمراد بالسماء المطر.
(٦) بفَجْرة: بفجور وخيانة. اللحظان: مصدر لحظ أي نظر بمؤخر عينيه، وهو أشد من الشزر.
(٧) الوفادة: مصدر وفد. وتَنْبَتّ: تنقطع. والنوى: الوجه يُذهبَ فيه. والأقران: ج قِرْن، والقِرْن للانسان مِثْله في الشجاعة والشدة والعلم والقتال.

حَـجٌّ وغَـزوٌ مـاتَ بينهمـا الكَـرَى ... بـاليَعْمَلاتِ شِعـارُهـا الوَخَـدانُ[1]

يَـرْمـي بهِـنَّ نيـاطَ كـلِّ تنـوفَـةٍ ... فـي اللهِ رحَّـالٌ بهـا، ظَعَّـانُ[2]

حتـى إذا واجَهْـنَ أقْبَـالَ الصَّفـا ... حـنَّ الحَطيمُ، وأطَّـتِ الأركـانُ[3]

لا غَرْوَ ينْفـرِجُ الدُّجـى عـن وجْهِـه ... إنَّ التَّقِـيَّ مُسَـدَّدٌ ومُعـانُ

يَصْلَـى الهَجيـرَ بِغُـرَّةٍ مَهْـديَّـةٍ ... لـو شـاءَ صـانَ أديمَهـا الأكْنـانُ[4]

ألِفَـتْ مُنـادَمَـةَ الدِّمـاءِ سيُـوفُـهُ ... فلقَلَّمـا تَحتـازُهـا الأجْفـانُ[5]

حتى الذي في الرَّحْمِ لم يَكُ صـورةً ... لِفُـؤادِهِ مِـنْ خَـوْفِـهِ خَفَقـانُ[6]

حَذَرَ امْرِىءٍ قُصِرَتْ يداه على العـدا ... كـالـدَّهْـرِ فيـهِ شَـراسـةٌ وليـانُ

مُتبـرِّجُ المعْـروفِ عـرِيـضُ النَّـدى ... حَصِـرٌ بلا منْـهُ فـمٌ ولسـانُ[7]

للجـودِ مِـنْ كِلْتـا يَـدَيْـهِ مُحَـرِّكٌ ... لا يستطيـعُ بلـوغَـهُ الإسكـانُ

---

(١) اليعملات: النياق السريعة. الوخَدان: نوع من سيرها.

(٢) النياط: الفؤاد. والتنوفة: المفازة ظعّان: مبالغة من ظاعن أي مسافر.

(٣) أقبال الصفا: الأقبال جمع قُبُل وهو من الجبل سَفْحُه. الحطيم: ما بين الركن وزمزم والمقام. وأطَّت الأركان: صوَّتَتْ

(٤) يصلى الهجير: يكابده، والهجير شدة الحرّ. والأديم: الجلد. الأكنان: جمع كِنّ وهو الستر والبيت.

(٥) أجفان السيوف: غمودها.

(٦) قوله لم يك صورة أي لم يَتَشَكَّلْ بعدُ والجملة من الذي، وهذا البيت في المبالغة كقوله:
وأخفـتَ أهـلَ الشِّـرْكِ حتـى انَّـه ... لتخـافُـكَ النُّطَـفُ التـي لـم تُخْلَـقِ

(٧) متبرج المعروف: أي مُظهر له وهو مُدِلٌّ به كما تتبرج المرأة باظهار زينتها عُجْبًا وإدلالا. وقوله: عريضُ الندى: أي مُعترِضٌ به لطلابه. حَصِرٌ بلا: أي لا ينطق «لا» في كلام.

وقال يُعزِّي الأمين[1] ويمدحُه:

نُعـزِّي أميـرَ المـؤمنيـنَ مُحَمَّـدًا ... علـى خَيْـر مَيْـتٍ غيَّبَتْـهُ المقـابِـرُ
وإنّ أميـرَ المـؤمنيـنَ مُحَمَّـدًا ... لـرابـطُ جـأشٍ للخُطـوبِ وصـابِـرُ
زَهَـتْ بـأميـرِ المُـؤمنيـنَ مُحمَّـدٍ ... أَسِـرَّة مُلْـكٍ، واستقـرَّتْ منـابِـرُ
فلا زِلـتَ للإسلام عِـزًّا ونـاصـرًا ... كمـا أنـتَ للإسْلام عِـزٌّ ونـاصِـرُ
ولا زِلـتَ مَـرْعِيًّـا بِعَيْـنٍ حفيظَـةٍ ... مـنَ اللهِ لا تسْطُـو عليـك المقـادِرُ
تسوسُ أمـورَ النـاسِ تِسْعيـنَ حجَّـةً ... وهَدْيُكَ محمـودٌ وعِـرْضُـكَ وافِـرُ

(١) هو الخليفة العبّاسيّ محمد بن هارون الرشيد (١٧٠ هـ/٧٨٧م - ١٩٨ هـ/٨١٣م). كان أبيض، طويلًا، سمينًا، جميل الصورة، شجاعًا، أديبًا، رقيق الشعر، مُكْثِرًا من إنفاق الأموال، سيِّء التدبير، يُؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو، ومجالسة الندماء.

أبو تمّام في مدح المعتصم

هو حبيب بن أوس الطائي (١٨٨ هـ / ٨٠٤ م - ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م). شاعر مجيد وأحد أمراء البيان. كان أسمر طويلًا، فصيحًا، حلو اللسان، يحفظ أربعة آلاف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع. له تصانيف منها: «فحول الشعراء»، و«ديوان الحماسة».

والممدوح هو محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور (١٧٩ هـ / ٧٩٥ م - ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م). خليفة من أعاظم الخلفاء العبّاسيّين. بنى مدينة سامراء حين ضاقت بغداد بجنده، وهو أوّل من أضاف إلى اسمه اسم الله تعالى، من الخلفاء، فقيل: «المعتصم بالله»، وكان ليّن العريكة، رضيّ الخلق، اتّسع ملكه جدًّا.

أمّا مناسبة القصيدة، فقد هاجم امبراطور الروم بلدتي «زِبَطْرَة» و«مُلْطِيَة» فاحتلّهما، وأَعْمَلَ فيهما القتل والسَّبي. ويُروى أنّ عربيّةً من السّبايا صاحَت مستغيثة: «وا مُعْتَصِماه»، فبلغ الخبرُ المعتصِمَ، فقال: «لبَيْكِ لَبَّيْكِ»، فهاجم «عمّورية». واحتلّها، واستباحها هَدْمًا، وإحراقًا، وقَتْلًا، وسَبْيًا، فقال أبو تمام في المناسبة:

السَّيْفُ أصْدَقُ أَنْبَاءً مِن الكُتُبِ   في حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ[1]

(١) المقصود بالكتب في هذا البيت كتب السحر والتنجيم التي زعم أصحابها بأنّ عمّورية لن تفتح في الوقت الذي غزاها المعتصم.

فَتْحُ الفُتُــوحِ تَعَــالــى أنْ يُحِيــطَ بــهِ نَظْمٌ مِنَ الشِّعْرِ أو نَثْرٌ مِـنَ الخُطَـبِ
يا يَوْمَ وَقْعَـةِ عَمُّـورِيَّـةَ انْصَـرَفَـتْ عَنْكَ المنى حُفَّلًا مَعْسُولَةَ الحَلَـبِ[1]
أبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الإسْلامِ فـي صُعُـدٍ والمُشْرِكينَ ودار الشِّرْكِ في صَبَبِ[2]
لَقَـدْ تَـرَكْـتَ أميـرَ المـؤمِنيـنَ بهـا للنَّارِ يَوْمًـا ذليـلَ الصَّخـرِ والخشـبِ
غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهـو ضحـىً يشلُّـه وسْطَهـا صبـحٌ مـن اللَّهَـبِ[3]
حَتَّى كأنَّ جَلَابِيـبَ الدُّجـى رَغِبَـتْ عَنْ لَوْنِها أو كأنَّ الشَّمْسَ لم تَغِـبِ[4]
ضوءٌ مِـنَ النَّـارِ والظَّلْمـاءُ عَـاكِفَـةٌ وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخانٍ في ضُحًى شَحِـبِ
فالشَّمْسُ طالِعَةٌ مِـنْ ذا وَقَـدْ أفلَـتْ والشَّمْسُ واجِبَةٌ مِنْ ذا ولَمْ تَجِـبِ[5]
تَـدبيــرُ مُعْتَصِـمٍ بـاللهِ مُنْتَقِـمٍ للهِ مُـرْتَغِـبٍ فــي اللهِ مُـرْتَقِـبِ
لَمْ يَغْزُ قَوْمًا ولـم يَنْهَـضْ إلـى بَلَـدٍ إلّا تَقَــدَّمَــهُ جَيْشٌ مِــنَ الرُّعُــبِ
لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلًا يَوْمَ الوَغَى لَغَـدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَها في جَحْفَلٍ لَجِبِ[6]
رَمَـى بِـكَ اللهُ بُـرْجَيْهـا فَهَـدَّمَهَـا وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللهِ لَمْ يُصِـبِ...
لَبَّيْتَ صَوْتًـا زِبَطْـرِيًّـا هَـرَقْـتَ لَـهُ كأسَ الكرَى وَرُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ[7]

(١) حفّلًا: مليئة. معسولة الحلب: حليبها مخلوط بالعسل.
(٢) جَدّ: حظّ. صعد: علوّ وارتفاع. صبب: انخفاض.
(٣) بهيم الليل: أسوده. يشلّه: يطرده.
(٤) جلابيب: ج «جلباب» وهو الثوب الفضفاض، وهنا كناية عن شدّة الظلام. رغبت عن الشيء: تركته.
(٥) وجبت الشمس: غابت.
(٦) الجحفل: الجيش الكثير. الوغى: الحرب. لجب: كثير ذو ضجّة.
(٧) زبطريًّا: نسبة إلى زبطرة، وهنا إشارة إلى المرأة التي صاحت: «وامعتصماه» عندما ساقها الأعداء إلى الأسر بعد تعذيبها. هرقت: صببت. الكرى: النوم. الخرّد: ج «خريدة» وهي الفتاة العذراء. العرب: ج عروب وهي المرأة المحبّة لزوجها.

أجَبْتَهُ مُعْلِنًا بالسَّيْفِ مُنْصَلِتًا وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجَبِ(١)
تِسْعُونَ أَلْفًا كآسادِ الشَّرَى نَضَجَتْ جُلُودُهُم قَبْلَ نُضْجِ التين والعِنَبِ(٢)
والحَرْبُ قائِمَةٌ في مأزِقٍ لَجِبٍ تَجْثُو الرِّجَالُ به صُعْرًا على الرُّكَبِ(٣)
كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاها من سَنَا قَمَرٍ وَتَحْتَ عَارِضِها مِنْ عَارِضٍ شَنِبِ(٤)
كَمْ كانَ في قَطْعِ أسْبَابِ الرِّقَابِ بها إلى المُخَدَّرَةِ العَذْراءِ من سَبَبِ(٥)
خَلِيفَةَ اللهِ جَازَى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ جُرْثُومَةِ الدِّينِ والإسلامِ والحَسَبِ
بَصُرْتَ بالرَّاحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَها تُنَالُ إلّا على جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ
إنْ كان بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ من رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ أو ذِمامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ(٦)
فَبَيْنَ أيّامِكَ اللاتي نُصِرْتَ بها وبَيْنَ أيّامِ بَدْرٍ أقْرَبُ النَّسَبِ(٧)
أَبْقَتْ بَنِي الأصْفَرِ المُصْفَرِّ كَاسْمِهِمُ صُفْرَ الوُجُوهِ وَجَلَّتْ أوجُهَ العَرَبِ(٨)

★ ★ ★

---

(١) منصلتًا: مسلولًا.
(٢) نضج التين والعنب: إشارة إلى الصيف.
(٣) المأزق: الطريق الصعبة والضيّقة. صعرًا: متضايقة.
(٤) سناها: بريقها. عارض شنب: جميل الوجه.
(٥) المخدّرة: الفتاة المصونة في خدرها.
(٦) صروف الدهر: مصائبه. الرحم: صلة القرابة. منقضب: مقطوع.
(٧) أيّام بدر: إشارة إلى المعركة التي خاضها الرسول (ﷺ) ضد قريش وانتصر فيها.
(٨) بنو الأصفر: كناية عن الرّوم. جلّت: رفعت وأعزّت.

أبو تمّام في مدح المعتضد بالله

سبق التعريف بالشاعر منذ قليل، وأمّا الممدوح فهو الخليفة العبّاسيّ أحمد بن طلحة بن جعفر (المتوكل) (٢٤٢ هـ / ٨٥٧ م - ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م). أظهر بسالةً ودرايةً في حروبه مع الزنج والأعراب، وهو في سنّ الشباب. كان شجاعًا، ذا عزم، مهيبًا عند أصحابه يتّقون سطوته، ويكفّون عن الظلم خوفًا منه، وكان عارفًا بالأدب، موصوفًا بالحلم إلّا في مواضع الشدّة. قال ابن دحية: «هو أحد رجال بني العباس الخمسة، أقام العدل، وبذل المال، وأصلح الحال».

وفيما يلي أبيات من قصيدة قالها أبو تمام في مدحه.

★ ★ ★

إلى قُطُبِ ٱلدُّنيا ٱلَّـذي لـو بِفَضْلِـهِ ... مَدَحْتُ بَنِي ٱلدُّنيا كَفَتْهُـمْ فَضَـائِلُـه

مَنِ ٱلبأْسُ والمَعْروفُ والجُودُ والتُّقـى ... عِيـالٌ عليـهِ رِزقُهُـنَّ شَمـائِلُـه

هُوَ ٱلبَحْرُ مِـن أَيِّ ٱلنَّـواحـي أَتَيْتَـهُ ... فَلُجَّتُهُ ٱلمَعْـرُوفُ وٱلجُـودُ ساحِلُـه

تَعَـوَّدَ بَسْـطَ الكَـفِّ حَتَّـى لَـوَ ٱنَّـهُ ... ثَنـاهـا لِقَبْـضٍ لـم تُطِعْـهُ أنـامِلـه

وَلَو لم يَكُـنْ فـي كَفِّـهِ غَيْـرُ نَفْسِـهِ ... لَجـادَ بهـا فَلْيَتَّـقِ ٱللهَ سـائِلُـه

عليّ بن الجهم في مدح المتوكّل العبّاسيّ

هو عليّ بن الجهم بن بدر من لؤي بن غالب (٠٠٠ - ٢٤٩هـ / ٨٦٣ م) أديب من أهل بغداد. خصّ بالمتوكّل العبّاسيّ ومدحه، ثمّ غضب عليه المتوكّل، فنفاه إلى خراسان. له ديوان شعر.

أمّا المتوكّل العبّاسيّ، فهو الخليفة جعفر بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد. كان جوادًا محبًّا للعمران، من آثاره «المتوكليّة» ببغداد. كثرت الزلازل في أيامه فعمر بعض ما خربت. كان يلبس في زمن الورد الثياب الحمر، ويأمر بالفرش الأحمر، ولا يرى الورد إلّا في مجلسه، وكان يقول: أنا ملك السلاطين، والورد ملك الرياحين، وكلٌّ منّا أَوْلى بصاحبه.

وفيما يلي مقتطفات من قصيدة ألقاها علي بن الجهم في مدحه.

وللشِّعْرِ أتْباعٌ كَثِيرٌ وَلَمْ أكُنْ ... لَهُ تَابِعًا فِي حالِ عُسْرٍ ولا يُسْرِ
ولٰكِنّ إحْسَانَ الخَلِيفَةِ جَعْفَرٍ ... دَعَاني إلَى ما قُلْتُ فيه مِنَ الشِّعْرِ
فَسَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ في كُلِّ بَلْدَةٍ ... وَهَبَّ هُبُوبَ الرِّيحِ في البَرِّ والبَحْرِ
وَلَوْ جَلَّ عَنْ شُكْرِ الصَّنِيعَةِ مُنْعِمٌ ... لَجلَّ أمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَنِ الشُّكْرِ
وَمَنْ خَالَ أنَّ البَحْرَ والقَطْرَ أشْبَها ... نَدَاهُ، فَقَدْ أثْنَى على البَحْرِ والقَطْرِ.

★ ★ ★

البحتريّ في مدح المتوكّل على الله

الشاعر هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائيّ (٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ـ ٢٨٤ هـ / ٨٩٨ م) شاعر كبير، وُصف شعره بأنّه «سلاسل الذهب»، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبّي، وأبو تمام، والبحتريّ. سئل أبو العلاء المعرّي: أيّ الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبّي وأبو تمّام حكيمان، وإنّما الشاعر البحتريّ، اتّصل بالمتوكّل العبّاسيّ، ومدحه، وفيما يلي مقتطفات من قصيدة قالها في مدحه:

أَبَرَّ عَلَى ٱلْأَنْوَاءِ نَائِلُكَ ٱلْغَمْرُ ... وَبِنْتَ بِفَخْرٍ مَا يُشَاكِلُهُ فَخْرُ
وَأَنْتَ أَمِينُ ٱللهِ في ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذي ... أَبَى ٱللهُ أَنْ يَسْمُو إِلَى قَدْرِهِ قَدْرُ
تَحَسَّنَتِ ٱلدُّنْيَا بَعَدْلِكَ فَٱغْتَدَتْ ... وَآفَاقُهَا بِيضٌ وَأَكْنَافُهَا خُضْرُ
هَنِيئًا لِأَهْلِ ٱلشَّامِ إِنَّكَ سَائِرٌ ... إِلَيْهِمْ مَسِيرَ ٱلْقَطْرِ يَتْبَعُهُ ٱلْقَطْرُ
تَفِيضُ كَمَا فَاضَ ٱلْغَمَامُ عَلَيْهِمِ ... وَتَطْلُعُ فِيهِمْ مِثْلَمَا يَطْلُعُ ٱلْبَدْرُ

وقال يمدحه من قصيدة

أَيُّهَا ٱلْعَاتِبُ ٱلَّذِي لَيْسَ يَرْضَى ... نَمْ هَنِيئًا فَلَسْتُ أُطْعَمُ غَمْضَا

إنَّ لي مِنْ هَوَاكَ وَجْـدًا قَـدِ ٱسْتَهْـ ـلَكَ نَوْمِـي وَمَضْجِعًـا قَـدْ أَقَضَّـا[1].
فَجَفُـونِـي فـي عَبْـرَةٍ لَيْسَ تَـرْقَـا وفُـؤَادِي فـي لَـوْعَـةٍ مـا تَقَضَّـى[2]
رِدْ حِيَـاضَ ٱلْإِمَـامِ تَلْـقَ نَـوَالًا يَسَـعُ الرَّاغِبِيـنَ طُـولًا وَعَـرْضـا
هُـوَ أَنْـدَى مـن ٱلْغَمَـامِ وَأَوْفَـى وَقَعَـاتٍ مِـنَ ٱلْحُسَـامِ وَأَمْضَـى
يَتَـوَخَّـى ٱلْإِحْسَـانَ قَـوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيـعُ ٱلْإِلَـهَ بَسْطًـا وَقَبْضـا
بِنْـتَ بـالفَضْـلِ وَٱلْعُلُـوِّ فَـأَصْبَحْـ ـتَ سَمَـاءً وأَصْبَـحَ ٱلنَّـاسُ أَرْضَـا
وأَرَى ٱلْمَجْـدَ بَيْـنَ عَـارِفَـةٍ مِنْـ ـكَ تُرْجَـى وَعَـزْمَـةٍ مِنْـكَ تُمْضَـى

---

(١) ختن
(٢) أي تتقضّى.

حافظ إبراهيم في مَدْح عُمَر بن الخطّاب

الشاعر هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس الشهير بحافظ إبراهيم (١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م - ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م) شاعر مصر القوميّ، ومدوّن أحداثها نيِّفًا وربع قرن. لقّب بـ« شاعر النِّيل ». كان قويّ الحافظة راوية، سميرًا، مَرِحًا، حاضر النكتة، جهوريّ الصوت، بديع الإلقاء، كريم اليد في حالي بؤسه ورخائه، مهذّب النفس، وفي شعره إبداع في الصَّوغ امتاز به عن أكثر أقرانه.

وأمّا الممدوح فهو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشيّ (٤٠ ق هـ / ٥٨٤ م - ٢٣ هـ / ٦٤٤ م) ثاني الخلفاء الراشدين، وأوّل من لُقِّب بأمير المؤمنين، الصّحابيّ الجليل، الشجاع الحازم. صاحب الفتوحات، يُضرب بعدله المثل. كان في الجاهليّة من أبطال قريش وأشرافهم، وهو أحد العمرين اللذين كان النبيّ (ﷺ) يدعو ربّه أن يعزّ الإسلام بأحدهما.

وفيما يلي مقتطفات قالها حافظ إبراهيم في مدح عمر، أنشدها مساء الجمعة في ٨ فبراير (شباط) سنة ١٩١٨، نقتطف منها ما يلي:

حَسْبُ القَوافي وَحَسْبِي حِيْنَ أُلْقِيْها ... أَنّي إلى ساحةِ الفاروق(١) أُهْدِيْها

لاهُمَّ(٢)! هَبْ لي بَيانًا أَسْتَعِيْنُ بِهِ ... على قَضَاءِ حُقُوقٍ نامَ قاضِيْها

(١) الفاروق: لقب أطلقه النبي (ﷺ) على عُمَر، لأنّه فَرّق بين الحق والباطل.

(٢) لا هُمَّ: أي اللّهُمّ.

إسلام عُمَر

رَأَيْتَ في الدِّيْنِ آراءً مُوَفَّقَةً ... فَأَنْزَلَ اللهُ قُرْآناً يُزَكِّيها[١]
وَكُنْتَ أَوَّلَ مَنْ قَرَّتْ بِصُحْبَتِهِ ... عَيْنُ الحَنِيفَةِ[٢]، وَآجْتازَتْ أَمانيها

عُمَر وَبَيْعة أبي بكر[٣]

وَمَوْقِفٍ لَكَ بَعْدَ المُصْطَفَى افْتَرَقَتْ ... فِيْهِ الصَّحابَةُ لَمّا غابَ هادِيْها[٤]
بايَعْتَ فيهِ أبا بَكْرٍ فَبايَعَهُ ... على الخِلافَةِ قاصِيْها ودانِيْها
وَأُطْفِئَتْ فِتْنَةٌ لولاكَ لآسْتَعَرَتْ[٥] ... بَيْنَ القَبائِلِ، وَآنْسابَتْ أَفاعِيْها
بات النَّبيُّ مُسَجًّى[٦] في حَظِيْرَتِهِ ... وَأَنْتَ مُسْتَعِرُ الأَحْشاءِ دامِيْها
تَهِيْمُ بَيْنَ عَجِيْجِ النّاسِ في دَهَشٍ ... مِنْ نَبْأَةٍ قَدْ سَرَى في الأَرْضِ سادِيْها[٧]

---

(١) يُزكّيها: يُعزِّزها ويُؤيِّدها. ويُشير الشاعر بهذا البيت إلى ما كان من عمر حين كان يرى الرأي، فينزل به القرآن، حتّى موافقاته نيّفًا وعشرين آية، منها آية التحريم في الخمر، لما قال: «اللهمَّ، بَيِّنْ لنا في الخَمْرِ بيانًا شافيًا»، ومنها آية الاستئذان في الدخول، وذلك أنّه دخل عليه غُلامه، وكان نائمًا، فقال: «اللهُمَّ حرِّم الدخول»، فنزلت آية الاستئذان... الخ.

(٢) الحنيفة: الاسلام.

(٣) يُشير إلى اختلاف المسلمين في يوم السَّقيفة بعد موت النبيّ (ﷺ)، وما كاد يلحقهم من انقسام الكلمة وتفرّق الشمل في اختيار خليفة لهم، وإلى فضْل عمر بن الخطاب، في مبايعة أبي بكر الصدِّيق بالخلافة، فالتأمَ شَمْل المُسلمين.

(٤) غاب هاديها: مات نبيُّها.

(٥) لاستعرت: لاشْتَعَلَتْ وتأجّجت.

(٦) سُجِّي الميت: مُدَّ عليه ثوبُه، وغُطِّي به.

(٧) تهيم: تَذْهَبُ دون أن تدري إلى أين. عجيج: صياح. نَبْأة: صوت خفيّ. ويُشير الشاعر بهذا البيت والأبيات التالية إلى ما تولى عُمَر والناس من الدَّهْش بوفاة النبيّ (ﷺ)، حتى إنَّ عُمَر هَدَّد بقطع رأس كلّ من يقول: «مات محمّد»، حتى جاءهم أبو بكر، فذكّرهم بقوله =

تَصِيْحُ: مَنْ قالَ نَفْسُ المُصْطَفى قُبِضَتْ عَلَوْتُ هـامَتَـهُ بـالسَّيْـفِ أَبْـرِيهـا[1]
أَنْسَـاك حُبُّـكَ طـــه[2] أَنَّـــهُ بَشَـــرٌ يُجْرِي عَلَيْهِ شُؤونَ الكونِ مُجْـرِيهـا
وَأَنَّـــهُ وارِدٌ، لا بُـــدَّ، مَـــوْرِدَهُ مِـنَ المَنِيَّـــةِ لا يُعْفِيْــهِ ســاقِيْهـــا
نَسِيْـتَ فـي حَـقِّ طـه آيَـةً نَـزَلَـت وَقَـدْ يُـذَكَّـرُ بـالآيـاتِ نـاسيهـا[3]

عمر وعليّ[4]

وَقَـــوْلَـــةٍ لِعَلـــيٍّ قـــالَهـــا عُمَـــرٌ أَكْـرِمْ بسـامِعِهـا، أَعْظِـمْ بِمُلْقِيْهـــا
حَرَقْـتُ دارَكَ لا أُبْقِـي عَلَيْـكَ بِهـا إنْ لَمْ تُبايعْ وبِنْـتُ المُصْطَفَـى فِيْهـا
ما كانَ غَيْرُ أَبي حَفْـصٍ يَفُـوهُ بهـا أَمامَ فـارِسِ عَـدْنـانٍ وحـامِيْهـا[5]
كلاهُما فـي سَبِيْـلِ الحـقِّ عَـزْمَتُـهُ لا تَنْثَنـي أَوْ يكـونَ الحـقُّ ثـانيهـا

= تعالى: «وما محمَّدٌ إلّا رسولٌ قَدْ خَلَتْ من قبله الرسل (آل عمران: ١٤٤)، فعاد عمر والناسُ معه إلى صوابهم.

(١) المصطفى: النبيّ محمد (ﷺ). هامته: أعلى رأسه. وانظر المقصود من هذا البيت في الهامش السابق.

(٢) طَه: النبيّ محمد (ﷺ).

(٣) يُشير إلى الآية الكريمة: «وما محمدٌ إلّا رسولٌ خَلَتْ مِنْ قبلِهِ الرسل» (آل عمران: ١٤٤).

(٤) يُشير الشاعر بالأبيات الأربعة التالية إلى امتناع عليّ عن البيعة لأبي بكر يوم السّقيفة، وتهديد عمر له بإحراق بيته إذا استمرّ على امتناعه، وكانت فيه فاطمة بنت الرسول (ﷺ) زوجة عليّ.

(٥) أبو حفص: كنية عمر. فارس عدنان: لقب علي بن أبي طالب.

عمر وجبلة بن الأيهم[1].

كَمْ خِفْتَ في اللهِ مَضْعُوفًا دعاكَ بِـهِ وكَـمْ أَخَفْـتَ قَـوِيًّـا يَنْثَنـي تِيْهـا[2]
وفي حَدِيْـثِ فَتَـى غَسّـانَ مَـوْعِظَـةٌ لِكُـلِّ ذِي نَعْـرَةٍ يَـأْبَـى تَنـاسِيْهـا[3]
فَمـا القَـوِيُّ قَـوِيًّـا رَغْـمَ عِـزَّتِـهِ عِنْدَ الخُصومَـةِ والفـاروقُ قـاضِيْهـا
ومـا الضَّعِيْـفُ ضَعِيفًـا بَعْـدَ حُجَّتِـهِ وإنْ تَخـاصَـمَ واليهـا وراعيهـا

عُمَر وخالد بن الوليد[4]

سَلْ قاهِرَ الفُرْسِ والرُّومانِ : هل شَفَعَتْ لَهُ الفُتُوحُ، وَهَـلْ أَغْنَـى تَـوالِيْهـا[5]
غَزا فَأَبْلَـى وَخَيْـلُ اللهِ قَـدْ عُقِـدَتْ بِاليُمْنِ والنَّصْرِ والبُشْرَى نَواصِيْهـا[6]
يَـرْمـي الأعـادِي بِـآراءٍ مُسَـدَّدَةٍ وبالفوارِسِ قَدْ سالَـتْ مَـذاكِيْهـا[7]
مـا واقَـعَ الرُّومَ إلّا فَـرَّ قـارِحُهـا ولا رَمَى الفُـرْسَ إلّا طـاشَ رامِيْهـا

---

(١) كان جبلة بن الأيهم أحد ابناء الغساسنة ملوك الشام، فاعتنق الإسلام. وبينا هو يطوف إذْ وطِيء أعرابيّ ثوبه، فلطمه جبلة وهشم أنْفه، فشكاه الأعرابيّ إلى عُمَر، فأمر أن يُقْتَصَّ منه، فهرب جبلة إلى القسطنطينيّة، وعاد إلى النصرانيّة.

(٢) مَضْعوفًا: ضعيفًا، والقياس مُضْعَفًا. ينثني: يَتَمايل، ويَتَبَخْتَر. تيهًا: كِبرًا.

(٣) فَتى غسّان: المقصود جبلة بن الأيهم. نَعرة، بفتح العَين، وسكِّنت للضرورة الشعريَّة، ومعناه الخُيَلاء والتكبُّر.

(٤) يُشير الشاعر في الأبيات التالية إلى قصّة عَزْل عمر بن الخطّاب لخالد بن الوليد، وإسناده قيادة الجيش العامّة إلى أبي عبيدة بن الجراح، وكان خالد، آنذاك، في إبّان انتصاراته، وقبل أمْر عُمَر، وبقي طوال حياته مُطيعًا له، وقبل موته أوصاه بأولاده.

(٥) قاهر الفرس والرومان هو خالد بن الوليد.

(٦) النواصي: جمع ناصية، وهي مقدّمة الرأس.

(٧) المذاكي: الخيل التي اكتملت قوّتها. وانسيال المذاكي كناية عن انتشارها وكثرتها تشبيهًا بانسيال الماء.

وَلَمْ يَجُزْ بَلْدَةً إِلّا سَمِعْتَ بِها ... اللهُ أَكْبَرُ تَدْوِي فِي نَواحِيْها
عِشْرونَ مَوْقِعَةً مَرَّتْ مُحَجَّلَةً ... مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ، بَنانُ الفَتْحِ تُحْصِيْها[1]
وخالِدٌ فِي سَبِيْلِ اللهِ مُوْقِدُها ... وخالِدٌ في سبيلِ اللهِ صالِيْها[2]
أَتاهُ أَمْرُ أَبِي حَفْصٍ فَقَبَّلَهُ ... كَما يُقَبِّلُ آيَ اللهِ تالِيها[3]
وَٱسْتَقْبَلَ العَزْلَ فِي إِبّانِ سَطْوَتِهِ ... وَمَجْدِهِ مُسْتَرِيحَ النَّفْسِ هادِيها
أَلْقَى القِيادَ إِلَى الجَرّاحِ مُمْتَثِلًا ... وَعِزَّةُ النَّفْسِ لم تُجْرَحْ حَواشِيها[4]
وَٱنْضَمَّ لِلْجُنْدِ يَمْشِي تَحْتَ رايَتِهِ ... وَبِالحَياةِ إِذا مالَتْ يُفَدِّيها
وما عَرَتْهُ شُكُوكٌ فِي خَلِيْفَتِهِ ... ولا ارْتَضَى إِمْرَةَ الجَرّاحِ تَمْوِيها

عمر وابنه عبدالله[5]

وما وَقَى ابْنُكَ عَبْدُاللهِ أَيْنُقَهُ ... لَمّا ٱطَّلَعْتَ عليها في مراعِيها[6]
رَأَيْتَها فِي حِماهُ وَهْيَ سارِحَةٌ ... مِثْلَ القُصورِ قَدِ ٱهْتَزَّتْ أَعالِيها
فَقُلْتَ: ما كانَ عَبْدُاللهِ يُشْبِعُها ... لَوْ لَمْ يَكُنْ وَلَدِي أَوْ كان يُرْوِيها
قَدِ ٱسْتَعانَ بِجاهِي فِي تِجارَتِهِ ... وباتَ باسْمِ أَبِي حَفْصٍ يُنَمِّيها

---

(١) مُحَجَّلة: واضحة، مشرقة بالانتصار فيها.
(٢) صاليها: يُقاسي حرَّها وشدَّتها.
(٣) أبو حفص هو عمر نفسه.
(٤) الجرّاح هو أبو عبيدة بن الجرّاح.
(٥) يُشير الشاعر إلى ما يُروى من أنَّه مَرَّ، يومًا، بنوق قد بَدَت عليها آثار النعمة، فسأل عن صاحبها، فقيل له: عبدالله، فساقها إلى بيت المال ظنًّا منه أنَّ ثروة ابنه لا تفي لها، وأنّه لولا جاهه بين الناس ما قدر على إطعامها.
(٦) أيْنُقه: نياقه.

رُدُّوا النِّياقَ لِبَيْتِ المالِ إنَّ لَـهُ   حَـقَّ الزِّيادَةِ فيها قَبْلَ شارِيها

عمر ورسول كسرى[(١)]

وَراعَ صاحِبَ كِسْرَى أَنْ رَأَى عُمَرًا   بَيْنَ الرَّعِيَّةِ عُطْلًا وَهْوَ راعِيها[(٢)]
وَعَهْدُهُ بِمُلوكِ الفُرْسِ أَنَّ لَها   سُورًا مِنَ الجُنْدِ والأَحْراسِ يَحْميها
رَآهُ مُسْتَغْرِقًا في نَوْمِهِ، فَرَأَى   فيهِ الجلالَةَ في أَسْمَى مَعانيها
فَوْقَ الثَّرَى تَحْتَ ظِلِّ الدَّوحِ مُشْتَمِلًا   بِبُرْدَةٍ كادَ طُولُ العَهْدِ يُبْلِيها[(٣)]
فَهانَ في عَيْنِهِ ما كانَ يُكْبِرُهُ   مِنَ الأَكاسِرِ والدُّنْيا بِأَيْديها
وقالَ قَوْلَةَ حَقٍّ أَصْبَحَتْ مَثَلًا   وَأَصْبَحَ الجِيْلُ بَعْدَ الجِيْلِ يَرْويها:
أَمِنْتَ لَمَّا أَقَمْتَ العَدْلَ بَيْنَهُمُ   فَنِمْتَ نَوْمَ قَريرِ العَيْنِ هانيها

مثال من رحمته[(٤)]

وَمَنْ رَآهُ أَمامَ القِدْرِ مُنْبَطِحًا   والنّارُ تأْخُذُ مِنْهُ وَهْوَ يُذْكِيها[(٥)]

---

(١) يشير الشاعر في الأبيات التالية إلى ما يرُوى من أنّه لمّا جاء رسول كسرى إلى عمر، وجده راقدًا على الرمل، جاعلًا منه وسادة أسند إليها رأسه، فوقف أمامه خاشعًا، وقال عبارته المألوفة: عَدَلت، يا عمر، وأمنت، فنمت.

(٢) عُطلًا: متجرّدًا من مظاهر الأبّهة.

(٣) الدوح: جمع دوحة، وهي الشجرة الكبيرة المتسعة الظلّ. واشتمل الرجل ثوبه: تلفّف به وأداره على جسده.

(٤) يشير الشاعر في الأبيات التالية إلى ما يروى من أن عمر رأى امرأة توقد النار على حصى وماء، تُشغل بذلك أولادها عن طلب الطعام حتى يناموا، فحمل إليها عمر من بيت المال شيئًا من الدقيق، وجلس وساعدها في إشعال النار، ولم ينصرف حتى أكل الأطفال وناموا.

(٥) يذكيها: يشعلها.

وَقَـدْ تَخَلَّـلَ فـي أَثْنـاءِ لِحْيَتِـهِ مِنْها الدُّخانُ وَفُوهُ غابَ في فيها[1]
رَأى هُنـاكَ أميرَ المُـؤمِنيـن علـى حـالٍ تَـروعُ لَعَمْـرُ اللهِ رائِيها
يَسْتَقْبِلُ النّارَ خَوْفَ النـارِ فـي غَـدِهِ والعَيْنُ مِـنْ خَشْيَـةٍ سـالَتْ مَـآقيها

مثال من رجوعه إلى الحق[2]

وَفِتْيَـةٍ وَلِعُـوا بـالـرّاحِ فـانْتَبَـذُوا لَهُمْ مَكانًـا، وَجَـدُّوا فـي تَعاطِيْها
ظَهَرْتَ حـائِطَهُـمْ لَمّـا عَلِمْـتَ بِهِـمْ وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرُ الأرْجاءِ ساجِيْها[3]
حَتّى تَبَيَّنْتَهُـمْ والخَمْـرُ قَـدْ أَخَـذَتْ تَعْلُـو ذُؤابَـةَ سـاقِيْها وحـاسِيها[4]
سَفَّهْـتَ آراءَهُـمْ فِيهـا فَمـا لَبِثُـوا أَنْ أَوْسَعُوكَ على ما جِئْتَ تَسْفِيها[5]
وَرُمْـتَ تَفْقيْهَهُـمْ فـي دِيْنِهِـمْ فَـإِذا بالشَّرْبِ قَدْ بَرَعُوا الفاروقَ تَفْقِيها[6]
قالوا: مَكانَـكَ قَـدْ جِئْنـا بِـواحِـدَةٍ وَجِئْتَنـا بِثَلاثٍ لا تُبـالِيهـا[7]
فَأْتِ البُيوتَ مِنَ الأَبْوابِ، يـا عُمَـرُ فَقَـدْ يُـزَنُّ مِـنَ الحِيطانِ آتِيهـا[8]

---

(١) أي فَمُه غاب في فم النار وهو يشعلها.
(٢) يُشير الشاعر بالأبيات التالية إلى ما رُوي من أنَّ عمر تَسَوَّر الحائط على جماعة يشربون الخمر يُريد أن يُباغتهم، فأنكروا عليه ثلاثة أمور: ١ ـ دخوله عليهم من غير الباب. ٢ ـ عدم استئذانه. ٣ ـ تجسّسه عليهم، وكلّ من هذه الأمور الثلاثة نَهى الله عنها، فغلبوه بالحجّة، فانثنى عنهم.
(٣) ظَهَرْتَ حائطهم: عَلَوتَه. اللَّيل الساجي: الساكن.
(٤) الذؤابة: الضفيرة من الشّعر، والمراد بها، هنا، أعلى الرأس. حاسيها: شاربها.
(٥) فيها: أي في الخمر.
(٦) الشَّرْب: الشّاربون. بَرَعوا: فاقوا. الفاروق: لقب عُمَر.
(٧) أي نَحْنُ أتينا بمعصية، وأنت أتيتَ بثلاث.
(٨) يُزَنّ: يُتّهم.

وَٱسْتَأْذِنِ الناسَ أَنْ تَغشَى بُيوتَهُمُ ولا تُلِمَّ بِدارٍ اوْ تُحَيِّيها
ولا تَجَسَّسْ، فَهٰذي الآيُ قَدْ نَزَلَتْ بِالنَّهْيِ عَنْهُ، فَلَمْ تَذْكُرْ نَواهِيها[1]
فَعُدْتَ عَنْهُمْ وَقَدْ أَكْبَرْتَ حُجَّتَهُمْ لَمَّا رَأَيْتَ كِتابَ اللهِ يُمْلِيها
وَما أَنِفْتَ وإنْ كانُوا على حَرَجٍ مِنْ أَنْ يَحُجَّك بالآياتِ عاصِيها[2]

---

(١) أي: لا تدخل الدار حتَّى تستأذن وتُسلِّم على أهلها.

(٢) الحَرَج: الإثم. يحجّك. يغلبك بالحُجَّة.

صفيّ الدين الحلّيّ في مدح الملك الناصر

الشاعر هو عبد العزيز بن سرايا (١٢٧٨ م / ٦٧٧ هـ - ١٣٤٩ م / ٧٥٠ هـ). شاعر عصره، له مؤلّفات عِدّة في الشعر، والزجل، والأغلاط اللغويّة، وغيرها.

والممدوح هو محمد بن قلاوون بن عبدالله الصالحيّ (٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م - ٧٤١ هـ / ١٣٤١ م) من كبار ملوك الدولة القلاوونيّة. له آثار عمرانيّة ضخمة، وتاريخ حافل بجلائل الأعمال. كان غايةً في الكرم، قيل: وهب في يوم واحد ما يزيد على مئة ألف دينار ذهبًا.

وفيما يلي مقتطفات من قصيدة لصفي الدين الحلّي قالها في مدحه عند قدومه إلى الحجاز.

مَلِكٌ يَرَى تَعَبَ ٱلْمَكَارِمِ رَاحَةً وَيَعُدُّ رَاحَاتِ ٱلْفِرَاغِ مَتَاعِبَا
بِمَكَارِمٍ تَذَرُ ٱلسَّبَاسِبَ أَبْحُرًا وَعَزَائِمٍ تَذَرُ ٱلْبِحَارَ سَبَاسِبَا
تُرْجَى مَوَاهِبُهُ وَيُرْهَبُ بَطْشُهُ مِثْلَ الزَّمَانِ مُسَالِمًا وَمُحَارِبَا
فَإِذَا سَطَا مَلَأَ ٱلْقُلُوبَ مَهَابَةً وَإِذَا سَخَا مَلَأَ ٱلْعُيُونَ مَوَاهِبَا
أَبْقَى قَلاوُنُ ٱلْفِخَارَ لِوُلْدِهِ إِرْثًا وَفَازُوا بِالثَّنَاءِ مَكَاسِبَا

قَوْمٌ إذا سَئِمُوا الصَّوَافِنَ[1] صَيَّرُوا   لِلْمَجْدِ أَخْطَارَ ٱلْأُمُورِ مَرَاكِبَا
عَشِقُوا ٱلْحُروبَ تَيَمُّنًا بِلقَا ٱلْعِدَى   فَكَأَنَّهُمْ حَسِبُوا ٱلْعُداةَ حَبَائِبَا
يَا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلْعَزِيزُ وَمَنْ لَهُ   شَرَفٌ يَجُرُّ عَلَى ٱلنُّجُومِ ذَوائِبَا
أَصْلَحْتَ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ بِهِمَّةٍ   تَذَرُ ٱلْأَجَانِبَ بِٱلْوِدَادِ أَقَارِبَا
وَحَرَسْتَ مُلْكَكَ مِنْ رَجِيمٍ مَارِدٍ   بِعَزَائِمٍ إِنْ صُلْتَ كُنَّ قَواضِبَا
لا يَنْفَعُ التَّجْرِيبُ خَصْمَكَ بَعْدَ مَا   أَفْنَيْتَ مَنْ أَفْنَى الزَّمَانَ تَجَارِبَا
وَجَعَلْتَ هَامَاتِ ٱلْكُمَاةِ مَنَابِرًا   وَأَقَمْتَ حَدَّ السَّيْفِ فِيهَا خَاطِبَا
وَبَذَلْتَ لِلْمُدَّاحِ صَفْوَ خَلائِقٍ   لَوْ أَنَّها لِلْبَحْرِ طَابَ مَشَارِبَا
لَمْ يَمْلَأُوا فِيكَ ٱلْبُيُوتَ غَرائِبًا   إِلَّا وَقَدْ مَلَأُوا ٱلْبُيُوتَ رَغَائِبَا
لَوْ أَنَّ أَعْضَانَا جَمِيعًا أَلْسُنٌ   تُثْنِي عَلَيْكَ لَمَا قَضَيْنَ ٱلْوَاجِبَا

وله من قصيدة يمدح بها السلطان الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازي بن ارتق

إنْ لم أَزُرْ رَبْعَكُمْ سَعْيًا عَلَى ٱلْحَدَقِ   فَإِنَّ وُدِّيَ مَنْسُوبٌ إِلَى ٱلْمَلَقِ
تَبَّتْ[2] يَدِي إِنْ ثَنَتْنِي عَنْ زِيَارَتِكُمْ   بِيضُ ٱلصِّفَاحِ وَلَوْ سُدَّتْ بها طُرُقِي
يا جِيرَةَ ٱلْحَيِّ هَلَّا عَادَ وَصْلُكُمُ   لِمُدْنِفٍ مِنْ خُمَارِ ٱلْوَجْدِ لَمْ يُفِقِ
لا تُنْكِرُوا فَرَقِي مِنْ بَعْدِ بُعْدِكُمُ   إِنَّ ٱلْفِرَاقَ لَمُشْتَقٌّ مِنَ ٱلْفَرَقِ
هَبَّ النَّسِيمُ عِراقِيًّا فَشَوَّقَنِي   وَطَالَمَا هَبَّ نَجْدِيًّا فَلَمْ يَشُقِ
فَمَا تَنَفَّسْتُ وَٱلْأَرْوَاحُ سَارِيَةٌ   إِلَّا ٱشْتَكَتْ نَسَمَاتُ الرِّيحِ مِنْ حُرَقِي

(١) جمع صافن هو من الخيل القائم على ثلاث.
(٢) هلكت وضلت.

ذَرْ أَيُّهَا الصَّبُّ تِذكَار آلدِّيَارِ إِذَا   مُتِّعْتَ فِيهَا بِعَيْشٍ غَيْرِ مُتَّسِقِ
فَهٰذِهِ شُهُبُ آلشَّهْبَاءِ سَاطِعَةً   وَهٰذِهِ نَسْمَةُ آلْفَرْدَوْسِ فَآنْتَشِقِ
سَمَاءُ مَجْدٍ بَدَا فِيهَا فَزَيَّنَهَا   نَجْمٌ تَخِرُّ لَدَيْهِ أَنْجُمُ آلْأُفُقِ
مَلْكٌ غَدَا آلْجُودُ جُزْءًا مِنْ أَنَامِلِهِ   فَلَوْ تَكَلَّفَ تَرْكَ آلْجُودِ لَمْ يُطِقِ
أَعَادَ لَيْلَ آلْوَرَى صُبْحًا وَكَمْ رَكَضَتْ   جِيَادُهُ فَأَرَتْنَا الصُّبْحَ كَآلْغَسَقِ
لَوْلاَ أَبُو آلْفَتْحِ نَجْمُ آلدِّينِ مَا فُتِحَتْ   أَبْوَابُ رِزْقٍ عَلَيْهَا آللَّوْمُ كَآلْغَلَقِ
مَلْكٌ بِهِ آكْتَسَتِ آلْأَيَّامُ ثَوْبَ بَهَا   مِثْلَ آكْتِسَاءِ غُصُونِ آلْبَانِ بِآلْوَرَقِ
يَا أَيُّهَا آلْمَلِكُ آلْمَنْصُورُ طَائِرُهُ   وَمَنْ أَيَادِيهِ كَالأَطْوَاقِ فِي عُنُقِي
أَحْيَيْتَ بِالجُودِ آثَارَ آلْكِرَامِ وقَدْ   كَانَ النَّدَى بَعْدَهُمْ فِي آخِرِ الرَّمَقِ
لَوْ أَشْبَهَتْكَ بِحارُ آلْأَرْضِ فِي كَرَمٍ   لَأَصْبَحَ الدُّرُّ مَطْرُوحًا على آلطُّرُقِ
لَوْ أَشْبَهَ آلْغَيْثُ جُودًا مِنْكَ مُنْهَمِرًا   لَمْ يَنْجُ فِي آلْأَرْضِ مَخْلُوقٌ مِنَ آلْغَرَقِ
كَمْ قَدْ أَبدْتَ مِنَ آلْأَعْدَاءِ مِنْ فِئَةٍ   تَحْتَ آلْعَجَاجِ وَكَمْ فَرَّقْتَ مِنْ فِرَقِ
بِكُلِّ أَبيضَ دَامِي آلْخَدِّ تَحْسَبُهُ   صُبْحًا عَلَيْهِ دمُ آلْأَبْطالِ كَآلشَّفَقِ
فَآسْتَبْشَرَتْ فِئَةُ آلْإِسْلاَمِ إِذْ لَمَعَتْ   لَهُمْ بَوَارِقُ ذَاكَ آلْعَارِضِ آلْغَدِقِ
وَأَصْبَحَ آلْعَدْلُ مَرْفُوعًا عَلَى نَشَزٍ[١]   لَمَّا وَلِيتَ وَبَاتَ آلْجَوْرُ فِي نَفَقِ
كَمْ قَدْ قَطَعْتُ إِلَيْكَ آلْبِيدَ مُمْتَطِيًا   عَزْمًا إِذَا ضَاقَ حُبُّ آلْأَرْضِ لَمْ يَضِقِ
يَدُلُّنِي فِي الدُّجَى مُهْرِي وَيُؤْنِسُنِي   حَدُّ آلْحُسَامِ إِذَا مَا بَاتَ مُعْتَنِقِي
وَآللَّيْلُ أَطْوَلُ مِنْ عَذْلِ آلْعَذُولِ عَلَى   سَمْعِي وَأَظْلَمُ مِنْ مَرْآهُ فِي حَدَقِي

---

(١) النشز المكان المرتفع.

وقال صفيّ الدين الحلي في مدح الملك الصالح إسماعيل بن محمد (٠٠٠ - ٦٤٨ هـ/ ١٢٥١ م) من ملوك الدولة الأيوبيّة. قيل في وصفه: كان ملكًا شهمًا مُحْسِنًا لحاشيته:

وَلاَ يُنَالُ العُلَى إلّا فَتًى شَرُفَتْ ... خِلاَلُهُ فَأَطَاعَ الدَّهْرُ ما أَمَرَا
كالصَّالِحِ المَلِكِ المَرْهُوبِ سَطْوَتُهُ ... فَلَوْ تَوَعَّدَ قَلْبَ الدَّهْرِ لانْفَطَرا(١)
يَكَادُ يَقْرأُ مِنْ عُنْوانِ هِمَّتِهِ ... ما في صَحائِفِ ظَهْرِ الغَيْبِ قَدْ سَطَرا
كالبَحْرِ والدَّهْرِ في يَوْمَيْ نَدى وَرَدًى ... واللَّيْثِ والغَيْثِ في يَوْمَيْ وَغًى وَقِرَى(٢)
مَا جَادَ لِلنَّاسِ إلّا قَبْلَما سَأَلُوا ... وَلَا عَفَا قَطُّ إلّا بَعْدَ مَا قَدِرَا
إذا غَدا الغُصْنُ غَضًّا مِنْ مَنَابِتِهِ ... مَنْ شَاءَ فَلْيَجْنِ مِنْ أَفْنَانِهِ الثَمَرَا(٣)
لَمْ يَرْحَلُوا عَنْ حِمَى أَرْضٍ إذا نَزَلُوا ... إلّا وأَبْقَوْا بها مِنْ جُودِهِمْ أَثَرَا
تَبْقَى صَنائِعُهُمْ في الأَرْضِ بَعْدَهُمُ ... والغَيْثُ إنْ سَارَ أَبْقَى بَعْدَهُ الزَّهَرَا(٤)
يا أيُّها المَلِكُ البَاني لِدَوْلَتِهِ ... ذكرًا طَوَى ذِكْرَ أَهْلِ الأَرْضِ وَٱنْتَشَرَا
كانَتْ عِدَاكَ لها دستٌ فَقَدْ صَدَعَتْ ... حَصَاةُ جِدِّكَ ذاك الدَّسْتَ فَانْكَسَرَا
ظَنُّوا تَأَنِّيكَ عَنْ عَجْزٍ وَمَا عَلِمُوا ... أنّ التَّأَنّي فيهِمْ يُعْقِبُ الظَّفَرا
أَحْسَنْتُمُ فَبَغُوا جَهْلًا وَمَا ٱعْتَرَفُوا ... لَكُمْ وَمَنْ كَفَرَ النُّعْمَى فَقَدْ كَفَرَا

★ ★ ★

---

(١) توعّد: تهدّد - انفطر: انشطر.

(٢) الندى: العطاء - الردى: الموت - الليث: الأسد - الغيث: المطر - الوغى: الحرب. القرى: إطعام الضيف.

(٣) الغضّ: الطري والناضر.

(٤) الصنائع: الأعمال الحميدة.

ابن عمّار في مدح المعتضد بالله

الشاعر هو محمد بن عمار المهري الأندلسيّ (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م - ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م) وزير شاعر هجّاء يُلقّب بذي الوزارتين. جعله المعتمد بن عباد (صاحب عرب الأندلس) وزيرًا له، ومشيرًا وجليسًا، ثمّ خلع عليه خاتم الملك، ولقّبه بالإمارة، واستنابه على «مرسية» فعصى بها، وتملّكها.

والممدوح هو عباد بن محمد بن إسماعيل (٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م - ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م) صاحب إشبيلية في عهد ملوك الطوائف. كان شجاعًا حازمًا، ينعت بأسد الملوك. طمع إلى الاستيلاء على جزيرة الأندلس، فدان له أكثر ملوكها، واستولى على غربها. كان يطرب للشعر، ويقوله.

ومن قصيدة لابن عمّار قالها في مدحه نقتطف الأبيات التالية:

أدِرِ ٱلْمُدامَةَ فَٱلنَّسِيمُ قَدِ ٱنْبَرَى   وَٱلنَّجْمُ قَدْ صَرَفَ ٱلْعِنَانَ عَنِ السُّرَى
وَٱلصُّبْحُ قَدْ أَهْدَى لَنَا كَافُورَهُ   لَمَّا ٱسْتَرَدَّ اللَّيْلُ مِنَّا ٱلْعَنْبَرَا
وٱلرَّوْضُ كَٱلْحَسْنَا كَسَاهُ زَهْرُهُ   وَشْيًا وَقَلَّدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرَا
رَوْضٌ كَأَنَّ النَّهْرَ فِيهِ مِعْصَمٌ   صَافٍ أَطَلَّ عَلَى رِدَاءٍ أَخْضَرَا
وَتَهُزُّهُ رِيحُ ٱلصَّبَا فَتَخَالُهُ   سَيْفَ ٱبْنِ عَبَّادٍ يُبَدِّدُ عَسْكَرَا

مَلِكٌ إِذَا ٱزْدَحَمَ ٱلْمُلُوكُ بِمَوْرِدٍ ... وَنَحَاهُ لا يَرِدُونَ حَتَّى يَصْدُرَا
أَنْدَى عَلَى ٱلْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ ٱلنَّدَى ... وَأَلَذُّ في ٱلأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ ٱلْكَرَى
قَدَّاحُ زَنْدِ ٱلْمَجْدِ لاَ يَنْفَكُّ عَنْ ... نَارِ ٱلْوَغَى إِلَّا إِلَى نَارِ ٱلْقِرَى
لا خَلْقَ أَقْرأُ مِنْ شِفَارِ حُسَامِهِ ... إِنْ كُنْتَ شَبَّهْتَ ٱلْمَوَاكِبَ أَسْطُرا
أَيْقَنْتُ أَنِّي مِنْ ذَرَاهُ بِجَنَّةٍ ... لَمَّا سَقَانِي مِنْ نَدَاهُ ٱلْكَوْثَرَا
وَعَلِمْتُ حَقًّا أَنَّ رَبْعِيَ مُخْصِبٌ ... لَمَّا سَأَلْتُ بِهِ ٱلْغَمَامَ ٱلْمُمْطِرَا
مَلِكٌ يَرُوقُكَ خَلْقُهُ أَوْ خُلْقُهُ ... كَٱلرَّوْضِ يَحْسُنُ مَنْظَرًا أَوْ مَخْبَرَا
أَقْسَمْتُ بِٱسْمِ ٱلْفَضْلِ حتى شِمْتُهُ ... فَرَأَيْتُهُ فِي بُرْدَتَيْهِ مُصَوَّرا
وَجَهِلْتُ مَعْنَى ٱلْجُودِ حَتَّى زُرْتُهُ ... فَقَرَأْتُهُ فِي رَاحَتَيْهِ مُفَسَّرَا
هَصَرَتْ يَدِي غُصْنَ ٱلنَّدَى مِنْ كَفِّهِ ... وَجَنَتْ بِهِ رَوْضَ ٱلسُّرُورِ مُنَوِّرَا
حَسْبِي عَلَى ٱلصُّنْعِ ٱلَّذِي أَوْلاَهُ أَنْ ... أَسْعَى بِجِدٍّ أَوْ أَمُوتَ فَأُعْذَرَا
أَلسَّيْفُ أَفْصَحُ مِنْ زِيَادٍ خُطْبَةً ... فِي ٱلْحَرْبِ إِنْ كانَتْ يَمِينُكَ مِنْبَرَا
مَا زِلْتَ تُغْنِي مَنْ عَنَا لَكَ رَاجِيًا ... نَيْلًا وَتُفْنِي مَنْ عَتَا وتَجَبَّرَا
حَتَّى حَلَلْتَ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ مَحْجِرًا ... رَحْبًا وَضَمَّتْ منكَ طَرْفًا أَحْوَرَا
فَلَئِنْ وَجَدْتَ نَسِيمَ حَمْدِيَ عَاطِرًا ... فَلَقَدْ وَجَدْتُ نَسِيمَ بِرِّكَ أَعْطَرَا

الفصل الثاني

مديح الأمراء والوزراء والوجهاء

لقد اتّصل الشعراء بالأمراء والوزراء والأشراف أكثر من اتّصالهم بالملوك والخلفاء، ذلك أنّه لم يكن متيّسرًا للشعراء أن يدخلوا إلى أبواب الملوك قبل أن يحظوا بلقاء من هم أدنى مرتبة منهم. فقد مدح النابغة الذبياني في أوّل الأمر قائد الحارث الغسّاني كما مدح زهير هرم بن سنان والحارث بن عوف حين أصلحا بين قبيلتي عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء. فهو يقول في أحد ممدوحيه:

تـــراه، إذا مـــا جئتَـــهُ، متهلّلا   كـأنَّـكَ تُعطيـهِ الذي أنـتَ سَـائلُـهْ

وهذه الصورة أعجبت المتأخّرين فكرّروها في شعرهم بعده، يصفون المتفضّل وهو يجود بماله قرير النفس، على وجهه بشاشة كأنّه يتقبّل الهديّة ولا يعطيها.

أمّا الأعشى فقد مدح كثيرًا وكان أوّل من سأل بشعره، فإذا ممدوحه قويّ معطاء يهب المال حين يشتدّ القحط في زمن الشتاء وتهزل المرضعات من الأنعام. ثم يأتي عصر بني أُميّة. ويكثر فيه العمّال والولاة والوجهاء فيتوزع الشعراء عليهم مادحين. وقد مدح الفرزدق كثيرًا من هؤلاء أمثال الحجّاج بن يوسف وخالد بن عبدالله القسريّ، فأثنى على شجاعتهم وكرمهم وأصالة نسبهم وشكرهم على نعمتهم ودعاهم إلى انقاذه ممّا هو فيه من ضنك وحاجة إلى المال. ثم تبعه جرير فمدح القوّاد والأمراء وتكسّب بمديحه وكان الحجاج أبرز ممدوحيه.

ثم جاء العصر العباسي فتوزّعت المناصب وكثرت الإمارات والوزارات، فانصرف الشعراء إلى هؤلاء الوجهاء والسّادة يمدحون طالبين قضاء الحاجة وبلوغ الأرب. فبشّار حين مدح وزير المهديّ اعترف له بأنّ انتظاره لثوابه قد طال. واضطرّ الشعراء إلى أن يرفعوا الوزراء والوجهاء والأمراء إلى مرتبة الخلفاء والملوك وإلى أن يسبغوا عليهم أثوابًا فضفاضة، حتّى اختلط على النّاقد التفريق بين ما قيل في الخلفاء وغير الخلفاء، لتقارب الصور والصيغ والأوصاف. وقد أصبح المديح حرفة ومهنة يبذل صاحبها ماء وجهه في سبيل المال. وغدا الأعزّاء من الشعراء يأنفون من نظم الشعر ممّا دفع بأبي فراس الحمداني إلى نفي صفة الشاعر عن نفسه حين قال:

نَطَقْتُ بفضلي وامتدحتُ عشيرتي ... فما أنا مدّاحٌ ولا أنا شاعِرُ

لقد أسقط المديح الشعر عن عرشه وأسقط معه قائله بعد أن كان للشاعر المقام الرفيع حيث كانت القبائل تهنّىء بعضها بعضًا بولادة الشاعر وتقوم وتقعد لقوله، وتفرش الولائم لقدومه وتقيم الأفراح لانتقاله ويحلّ من الملوك محلّ النديم والصديق.

ثم جاء أبو تمّام فقدّس البطولة في أروع صورها على الطريقة التقليدية، فأجاد وابتكر حتّى ليصحّ القول إنّ مدائحه لو انتظمت في كتاب واحد لجمعت في وصف المفاخر والأمجاد ملحمة تاريخيّة من أروع ما كتب في الشعر الملحميّ. قال في ممدوحه وقد أشرك النّاس معه في مديحه:

كريمٌ متى أمدحْهُ، أمدحه والورى ... معي، ومتى ما لمتُهُ، لمتُهُ وحدي

أو يصف ممدوحه قائلًا:

إقدامُ «عمرٍو»، في سماحة «حاتمٍ» ... في حلم «أحنفَ»، في ذكاء «إياسِ»[1]

---

(١) هو عمرو بن معد يكرب، وإياس هو ابن معاوية، كان قاضيًا بالبصرة.

ثمّ جاء البحتري فاقتفى آثار أبي تمّام وجعل ممدوحيه مشاعل تضيء في الكرم فتطفىء الكواكب، وسيوفًا مشهورة على الأعداء، وربيعًا من العطر والزهر على الدنيا. ومثله ابن الرومي الذي غالى وأسرف في القول حتّى جعلنا نتساءل: هل نؤمن بما يقوله هؤلاء الشعراء؟ إلى أن جاء المتنبي فبلغ بهذه المغالاة درجة جعلنا نصدّق معها أنّ هؤلاء الممدوحين كانوا دائمًا المنتصرين، يفرّ الأعداء أمامهم مولّين الأدبار ذلًّا ورهبة، مما جعل المستشرقين يتساءلون إذا كان هؤلاء الشعراء يجهلون أمر الحروب أو أنّهم لم يشهدوها. وقد انتقلت تلك العدوى إلى القرن العشرين حتّى رأينا أحمد شوقي يردّد: «وما الجيشُ إلا ربُّهُ حين يُنسبُ». فسار هو نفسه على خطّة هؤلاء، ولم يخرج عن تشبيهات القدماء في وصفه الوزراء والقوّاد. وليس عجيبًا أن يمدح شوقي أبطال الترك من أمثال مصطفى كمال، لأنّ الشاعر تهزّه البطولة أنّى كانت: فمدح القائد نابوليون حين وقف على قبره بباريس، ومدح سعد زغلول سياسيًا وزعيمًا. أمّا حافظ ابراهيم واسماعيل صبري فلم يختلفا كثيرًا عن نهج استاذهما شوقي في مديح الوجهاء والوزراء على طريقة الشعر في عصر بني العبّاس.

الفرزدق في مَدْح زين العابدين

هو همّام بن غالب بن صعصعة (٠٠٠ - ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م) شاعر من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس، يشبه بزهير بن أبي سلمى.

والممدوح هو عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٣٨ هـ/ ٦٥٨ م - ٩٤ هـ/ ٧١٢ م) رابع الأئمّة الاثني عشر عند الإماميّة، وأحد من كان يُضرب بهم المثل في الحلم والورع. قيل: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معايشهم ومآكلهم، فلمّا مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلًا إلى منازلهم.

وروي في مناسبة هذه القصيدة أنْ هشام بن عبد الملك حجّ في خلافة أبيه، فطاف بالبيت يريد استلام الحجر الأسود، فلم يستطع لشدّة ازدحام الناس، فَتَنَحَّى جانبًا. في هذا الوقت أقبل زين العابدين (علي بن الحسين بن أبي طالب) فطاف في البيت، فأفسح له الناس في المجال حتى استلم الحجر. فسأل أحد أهل الشام هشامًا: «من هذا الذي يحترمه الناس هذا الاحترام؟» فأجاب هشام، إمّا تَجاهُلًا، وإمّا خوفًا من أن يقوم عليه أهل الشام: «لا أعرفه». فسمعه الفرزدق فأنشد:

هذا الذي تَعْـرِفُ البطحـاءُ وَطْـأَتَـهُ والبيـتُ يَعْـرِفُـهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ[1]
هـذا ٱبْـنُ خَيْـرِ عبـادِ الله كُلِّهِـمُ هذا التَّقِـيُّ النَّقِـيُّ الطـاهِـرُ العَلَـمُ[2]
هذا ٱبْنُ «فاطمةٍ» إنْ كُنْتَ جَاهِلَـهُ بِجَـدِّهِ أَنْبِيـاءُ اللهِ قَـدْ خُتِمُـوا[3]
وَلَيْسَ قَوْلُكَ: «مَنْ هذا»؟ بِضَـائِـرِهِ العُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ والعَجَـمُ[4]
كِلْتَـا يَـدَيْـهِ غِيـاثٌ عَـمَّ نَفْعُهُمـا تُسْتَوْكَفَـانِ ولا يَعْـرُوهُمـا عَـدَمُ[5]
سَهْـلُ الخَلِيقَـةِ لا تُخْشَـى بَـوَادِرُهُ يَزِينُهُ ٱثْنَانِ: حُسْنُ الخُلْقِ والشِّيَمُ[6]
حَمّالُ أَثْقـالِ أَقْـوامٍ إذا ٱفْتُـدِحُـوا حُلْوُ الشَّمائـلِ تَحْلُـو عِنْـدَهُ نَعَـمُ[7]
ما قـال: «لا» قَـطُّ إلّا فـي تَشَهُّـدِهِ لَـوْلَا التَّشَهُّـدُ كـانَـتْ لاءَه نَعَـمُ[8]
عَمَّ البَرِيَّـةَ بـالإِحْسَـانِ فَـٱنْقَشَعَـتْ عَنْها الغَيَـاهِـبُ والإِمْلاقُ والعَـدَمُ[9]
إذا رَأَتْـهُ قُـرَيْشٌ قـال قَـائِلُهَـا: «إلى مَكارِمِ هـذا يَنْتَهِـي الكَـرَمُ»[10]
يُغْضِي حَيَـاءً وَيُغْضَـى مِـنْ مَهَـابَتِـهِ فمـا يُكَلَّـمُ إلّا حيـن يَبْتَسِـمُ[11]

(١) البطحاء: أرض منبسطة تقوم «مكّة» عليها. البيت: الكعبة. الحلّ: الأرض الواقعة وراء «مكة». الحرم: «مكة» وما يحيط بها.
(٢) العلم: الجبل أو الراية.
(٣) فاطمة: ابنةُ الرسول (ﷺ) وزوج علي بن أبي طالب، وجدَّةُ «زين العابدين» لأبيه. جدّه: الرسول (ﷺ) وهو جَدّ أبيه لأمّه.
(٤) بضائره: بمضرّ به، أو بِمُنْقِص من قيمته.
(٥) غياث: ما يساعد به المحتاج، عمّ: شمل. تُستوكفان: تُسْتَقْطران، يطلب سيلانها. يعروهما: يصيبها.
(٦) الخليقة: الطبع. بوادره: ج بادرة وهي ما يظهر من الإنسان ساعة الغضب من خطأ أو نحوه.
(٧) افتدحوا: صعب عليهم الأمر. الشمائل: ج شميلة وهي الطبع.
(٨) التشهّد: قول «لا إله إلا الله».
(٩) البريّة: الخلق. الغياهب: ج غيهب وهو الظلمة. الإملاق: الفقر.
(١٠) هذا: كناية عن «زين العابدين».
(١١) يغضي: يميل طرْفه أو نظره.

اللهُ شَــرَّفَــهُ قِــدْمًـــا وَعَظَّمَــــهُ جَرَى بذاكَ لَهُ فـي لَـوْحِـهِ القَلَـمُ(١)
أيّ الخَلائِـقِ لَيْسَـتْ فـي رِقَـابِهِـمُ لأوّلِيَّـــةِ هَـــذا أوْ لَـــهُ نِعَـــمُ
مَـنْ يَشْكُـرِ اللهَ يَشْكُـرْ أوْلَـوِيَّـةَ ذا فالدِّينُ مِنْ بَيْـتِ هـذا نَـالَـهُ الأمَـمُ
يُنْمَى إلى ذُرْوَةِ الدِّينِ التي قَصَـرَتْ عَنْها الأكُفُّ وعن إدْراكِها القَـدَمُ(٢)
مَـنْ جَـدُّهُ دانَ فَضْـلُ الأنبيـاءِ لَـهُ وَفَضْـلُ أمَّتِـهِ دانَـتْ لـه الأمَـمُ
مُشْتَقَّــةٌ مِــنْ رَسُــولِ اللهِ نَبْعَتُــهُ طَابَـتْ مَغَـارِسُـهُ والخَيْـمُ والشِّيَـمُ(٣)
يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدُّجَى عَنْ نُـورِ غُـرَّتِـهِ كالشَّمْسِ تَنْجَابُ عن إشراقها الظُّلَـمُ(٤)
مِـنْ مَعْشَـرٍ حُبُّهُـمْ دِيـنٌ وَبُغْضُهُــمْ كُفْـرٌ وَقُـرْبُهُـمُ مَنْجًـى وَمُعْتَصَـمُ(٥)
مُقَـدَّمٌ بَعْـدَ ذِكْـرِ اللهِ ذِكْــرُهُــمُ في كُلِّ بَدْءٍ وَمَخْتُـومٌ بـهِ الكَلِـمُ(٦)
إنْ عُدَّ أهْـلُ التُّقَـى كـانُـوا أئمَّتَهُـمْ أو قِيلَ: مَنْ خَيْرُ أهْلِ الأرْضِ»؟ قيلَ: همُ(٧)
هُـمُ الغُيُـوثُ إذا مـا أزْمَـةٌ أزَمَــتْ والأسْدُ، أسْدُ الشَّرَى والبأسُ مُحْتَدِمُ(٨)
لا يُنْقِصُ العُسْرُ بَسْطًـا مِـنْ أكُفِّهِـمُ سِيّانِ ذلك: إنْ أثْرَوا وإنْ عُدِمُـوا(٩)
يُسْتَـدْفَـعُ الشَّـرُّ والبَلْــوَى بِحُبِّهُــمُ وَيُسْتَـرَبُّ بـه الإحْسَـانُ والنِّعَـمُ(١٠)

(١) في لوحه القلم: أي ما كُتِبَ له.
(٢) ينمي: ينتسب. قصرت: عجزت.
(٣) النبعة: نوع من الشجر الصلب، وهنا كناية عن نَسَبه. الخيم: الطبيعة.
(٤) الدجى: الظلام. غرّته: وجهه. تنجاب: تزول.
(٥) منجى: خلاص. معتصم: ملجأ للاحتماء.
(٦) الكلم: الكلام.
(٧) أئمتهم: ج «إمام»، وهو الذي يقتدي به الناس.
(٨) الغيوث: ج «غيث» وهو المطر. أزَمَتْ: اشتدّت. الشرى: موضع تَكثر فيه الأسود.
(٩) العسر: الضيق. بسطًا: سخاءً وكرمًا. سيّان: مثنّى «سِيّ»، وهي المثل أو الشبه. عدموا: افتقروا.
(١٠) يسترَبّ: يُستزاد.

المتنبِّي في مدح سيف الدولة الحمدانيّ

هو شاعر عَصْرِه، بل شاعر العرب جميعًا على مَرّ العصور، أحمد بن الحسين بن الحسن (٩١٥ م / ٣٠٣ هـ - ٩٦٥ م / ٣٥٤ هـ) قَضَى حياته متنقِّلاً من أمير إلى آخر، يمدح هذا ويهجو ذاك، لكنَّ أكثر إقَامته كانت في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب. اشتُهر بالشعر الحكميّ، والمدح والهجاء.

أمّا الممدوح فهو علي بن عبدالله بن حمدان التغلبيّ (٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م - ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م)، أمير حلب. أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة، وكان كثير العطايا، مقرِّبًا لأهل الأدب، يقول الشعر الجيِّد الرقيق. قيل: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر.

والقصيدة التالية قالها المتنبِّي في مدحه عندما انتصر على الدّمستق في بلدة الحدث.

على قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تَأْتي العَزَائمُ   وَتَأْتي على قَدْرِ الكِرَامِ المكارِمُ
وَتَعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُها   وَتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظيمِ العَظائمُ
يُكَلِّفُ سيفُ الدَّوْلَةِ الجَيْشَ هَمَّهُ   وَقَدْ عَجزَتْ عَنْهُ الجُيُوشُ الخَضَارِمُ[1]

---

(١) الخضارم: الكثيرة العدد.

وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ ما عِنْدَ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ ما لا تَدَّعِيهِ الضَّراغِمُ[1]
هَلِ الحَدَثُ الحَمْراءُ تَعْرِفُ لَوْنَها وتَعْلَمُ أيُّ السَّاقِيَيْنِ الغَمائِمُ[2]
سَقَتْها الغَمامُ الغُرُّ قَبْلَ نُزُولِهِ فَلَمَّا دَنَا مِنْها سَقَتْها الجَماجِمُ[3]
بَناها فأَعْلَى والقَنَا يَقْرَعُ القَنَا وَمَوْجُ المَنايا حَوْلَها مُتَلاطِمُ
وَكَانَ بِها مِثْلُ الجُنُونِ فأصْبَحَتْ ومن جُثَثِ القَتْلَى عَلَيها تَمائِمُ[4]
طَرِيدَةُ دَهْرٍ سَاقَها فَرَدَدْتَها على الدِّينِ بالخَطِّيِّ وَالدَّهْرُ راغِمُ[5]
تُفِيتُ اللَّيالِي كُلَّ شَيْءٍ أخَذْتَهُ وَهُنَّ لِما يَأْخُذْنَ مِنْكَ غَوارِمُ[6]
إذا كانَ ما تَنْوِيهِ فعلًا مُضارِعًا مَضَى قَبْلَ أنْ تُلْقَى عَلَيهِ الجَوَازِمُ
وَقَفْتَ وما في المَوْتِ شكٌّ لِواقِفٍ كأنَّكَ في جَفْنِ الرَّدى وَهْوَ نائِمُ[7]
تَمُرُّ بِكَ الأبْطالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ[8]
تَجَاوَزْتَ مِقْدارَ الشَّجاعَةِ والنُّهَى إلى قَوْلِ قَوْمٍ أنْتَ بالغَيْبِ عَالِمُ[9]
ضَمَمْتَ جَنَاحَيْهِمْ عَلَى القَلْبِ ضَمَّةً تَمُوتُ الخَوَافِي تَحْتَها وَالقَوادِمُ[10]

---

(١) الضراغم: الآساد.
(٢) الحدث: اسم القلعة التي بناها سيف الدولة، ووصفها «بالحمراء» لاصطباغها بدماء الروم.
(٣) الغمام: ج «غمامة» وهي السحابة. الغرّ: البيض.
(٤) التمائم: ج «تميمة» وهي خرزة أو نحوها تعلّق في العنق دفعًا للشرّ.
(٥) الخطّي: الرّمح راغم: ذليل.
(٦) تفيت الليالي: تجبر على تَرْكِ. غوارم: أي ملزمة بأداء الغرامة.
(٧) الرّدى: الموت، الهلاك.
(٨) كلمى: ج «كليم»، أي جريح. وضّاح: مشرق.
(٩) النهى: العقل.
(١٠) الجناحان هنا ميمنة الجيش وميسرته. الخوافي: ريش يكون تحت جناح الطائر. القوادم: عشر ريشات في مقدّمة الجناح.

بِضَرْبٍ أتى الهَامَاتِ والنَّصرُ غـائِـبٌ ... وَصَارَ إلى اللَّبَّـاتِ والنَّصْـرُ قـادِمُ(١)

حَقَرْتَ الرُّدَيْنِيَّـاتِ حَتَّـى طَـرَحْتَهـا ... وَحَتَّى كأنَّ السَّيْفَ للرُّمْحِ شَـاتِـمُ(٢)

وَمَنْ طَلَـبَ الفَتْـحَ الجَلِيـلَ فـإنَّمـا ... مَفَاتيحُهُ البِيضُ الخِفَافُ الصَّـوارِمُ(٣)

نَثَـرْتَهُـمُ فَـوْقَ الأُحَيْـدِبِ كُلِّـهِ ... كما نُثِرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِـمُ(٤)

تَدُوسُ بك الخَيْلُ الوُكُورَ على الذُّرَى ... وَقَدْ كثرَتْ حَوْلَ الوُكُورِ المطاعِـمُ(٥)

تَظُـنُّ فِـراخُ الفُتْـخِ أنّـكَ زُرْتَهـا ... بـأمّـاتِهـا وهـي العِتَـاقُ الصَّلادِمُ(٦)

إذا زَلِقَـتْ مَشَّيْتَهـا بِبُطُـونِهـا ... كما تَتَمَشَّى في الصَّعِيـدِ الأَرَاقِـمُ(٧)

لَكَ الحَمْدُ في الدُّرِّ الَّذي لِيَ لَفْظُـهُ ... فـإنَّـك مُعْطِيـهِ وإنِّـيَ نـاظِـمُ(٨)

ألَا أيُّهـا السَّيْـفُ الذي لَيْسَ مُغْمَـدًا ... ولا فِيـهِ مُـرْتَـابٌ ولا مِنْـهُ عـاصِـمُ

هَنِيئًا لِضَرْبِ الهامِ والمَجْـدِ والعُلَـى ... وراجِيـكَ والإسْلامِ إنَّـكَ سَـالِـمُ(٩)

ولِمْ لا يَقِي الرَّحْمٰن حَدَّيك ما وَقَـى ... وتَفْلِيقُـهُ هَـامَ العِـدى بِـكَ دائـمُ(١٠)

★ ★ ★

---

(١) اللبّات: الصدور.
(٢) الرُّدَيْنيّات: الرماح، وهي نسبة إلى «رُدَينة» امرأة باليمامة اشتهرت وزوجها بصنع الرماح.
(٣) البيض: السيوف. الخفاف: المرهفة. الصوارم: القواطع.
(٤) الأحيدب: اسم جبل. نثرتهم. فرقتهم، وزعتهم.
(٥) الوكور: عش الطائر. الذرى: أعالي الشيء.
(٦) الفتخ: ج «فتخاء» وهي أنثى العقاب. العتاق: كرام الخيل. الصلادم: الخيل الشديدة الصلبة.
(٧) زلقت: زلّت بها القدم. الصعيد: وجه الأرض. الأراقم: الحيّات.
(٨) الدرّ: كناية عن شعره.
(٩) الهام: ج «هامة» وهي أعلى الرأس. العلى: المراتب العالية.
(١٠) تفليقه: شقّه.

أبو تمّام في مدح الحسن بن سهل

سبق التعريف بالشاعر، أمّا الممدوح فهو الحسن بن سهل بن عبدالله السرخسيّ، (١٦٦ هـ / ٧٨٢ م - ٢٣٦ هـ / ٨٥١ م) أحد كبار القادة والقضاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب، والفصاحة، وحسن التوقيعات والكرم، للشعراء فيه أماديح. قال أبو تمام في مدحه:

خَلَائِقَ ٱلْحَسَنِ ٱسْتَوْفِي ٱلْبَقَاءَ فَقَدْ ... أَصْبَحْتِ قُرَّةَ عَيْنِ ٱلمَجْدِ وَٱلْحَسَبِ
كَأَنَّمَا هُوَ مِنْ أَخْلَاقِهِ أَبَدًا ... وَإِنْ ثَوَى وَحْدَهُ في جَحْفَلٍ لَجِبِ
صِيغَتْ لَهُ شِيمَةٌ غَرَّاءُ مِنْ ذَهَبٍ ... لٰكِنَّهَا أَهْلَكُ ٱلْأَشْيَاءِ لِلذَّهَبِ
لَمَّا رَأَى أَدَبًا فِي غَيْرِ ذِي كَرَمٍ ... قَدْ ضَاعَ أَوْ كَرَمًا فِي غَيْرِ ذِي أَدَبِ
سَمَا إِلَى ٱلسُّورَةِ[١] ٱلْعَلْيَاءِ فَٱجْتَمَعَا ... فِي فِعْلِهِ كَٱجْتِمَاعِ ٱلنَّوْرِ وَٱلْعُشَبِ

★ ★ ★

(١) السّورة: المنزلة.

ابن خفاجة الأندلسيّ في مدح الأمير
أبي يحيى بن إبراهيم

الشاعر هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله بن خفاجة الاندلسيّ (٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م - ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م) شاعر وكاتب من البلغاء. غلب على شعره وصف الرياض. ومناظر الطبيعة. والقصيدة التالية قالها في مدح الأمير أبي يحيى بن إبراهيم الأندلسيّ.

ضَافِي رِدَاءِ ٱلْمَجْدِ طَمَّاحُ ٱلْعُلَى　　　طَامِي عُبَابِ ٱلْجُودِ رَحْبُ ٱلدَّارِ
جَرَّارُ أَذْيَالِ ٱلْمَعَالِي وَٱلْقَنَا　　　حَامِي ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْحِمَى وَٱلْجَارِ
طَرِدُ ٱلْقَنِيصِ بِكُلِّ قَيْدِ طَرِيدَةٍ　　　زَجِلِ ٱلْجَنَاحِ مُوَرَّدِ ٱلْأَظْفَارِ
مُلْتَفَّةٌ أَعْطَافُهُ بِحَبِيرَةٍ　　　مَكْحُولَةٌ أَجْفَانُهُ بِنُضَارِ
خَدَمَ ٱلْقَضَاءُ مُرَادَهُ فَكَأَنَّمَا　　　مَلَكَتْ يَدَاهُ أَعِنَّةَ ٱلْأَقْدَارِ
وَعَنَى ٱلزَّمَانُ لِأَمْرِهِ فَكَأَنَّمَا　　　أَصْغَى ٱلزَّمَانُ بِهِ إِلَى أَمَّارِ
وَجَلَا ٱلْإِمَارَةَ فِي رَقِيقِ نَضَارَةٍ　　　جَلَتِ ٱلدُّجَى فِي حُلَّةِ ٱلْأَنْوَارِ
فِي حَيْثُ وَشَّحَ لَبَّةً بِقِلَادَةٍ　　　مِنْهَا وَحَلَّى مِعْصَمًا بِسِوَارِ
جَذْلَانُ يَمْلَأُ مِنْحَةً وَبَشَاشَةً　　　أَيْدِي ٱلْعُفَاةِ وَأَعْيُنَ ٱلزُّوَّارِ

أَرِجَ ٱلنَّـدِيَّ بِـذِكْـرِهِ فَكَـأَنَّـهُ ... مُتَنَفِّسٌ عَـنْ رَوْضَـةٍ مِعْطَـارِ
بَطَلٌ حَوَى ٱلْفَلَكَ ٱلْمُحِيطَ بِسَرْجِهِ ... وَٱسْتَـلَّ صَـارِمَـهُ يَـدُ ٱلْمِقْـدَارِ
بِيَمِينِـهِ يَـوْمَ ٱلْـوَغَـى وَشِمَـالِـهِ ... مَـا شَـاءَ مِنْ نَـارٍ وَمِـنْ إِعْصَـارِ
وَٱلْخَيْلُ تَعْثُـرُ فِـي شَبَـاشَـوْكِ ٱلْقَنَـا ... قِصَـدًا وَتَسْبَـحُ فِـي ٱلـدَّمِ المـوَّارِ
وَٱلْبِيضُ تَحْنَى فِـي ٱلطُّلَـى فَكَـأَنَّمـا ... لُـوِيَـتْ عُـرًى مِنْهَـا عَلَـى أَزْرَارِ
وَٱلنَّقْعُ يَكْسِرُ مِنْ سَنَا شَمْسِ ٱلضُّحَـى ... فَكَـأَنَّـهُ صَـدَأٌ عَلَـى دِينَـارِ
صَحِبَ ٱلْحُسَامَ ٱلنَّصْرُ صُحْبَةَ غِبْطَـةٍ ... فِـي كَـفٍّ صَـوَّالٍ بِـهِ سَـوَّارِ
لَـوْ أَنَّـهُ أَوْحَـى إِلَيْـهِ بِنَظْـرَةٍ ... يَـوْمًا لِثَارَ وَلَـمْ يَنَـمْ عَـنْ ثَـارِ
وَقَضَـى وَقَـدْ مَلَكَتْـهُ هِـزَّةُ عِـزَّةٍ ... تَحْتَ ٱلْعَجَـاجِ وَضِحْكَـةُ ٱسْتِبْشَـارِ

★ ★ ★

ابن الأزرق الأندلسيّ في مدح الرئيس
أبي يحيى بن عاصم وتهنئته

هو محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسيّ (٠٠٠ - ٨٩٦ هـ/ ١٤٩١ م) عالم اجتماعيّ سلك طريقة ابن خلدون، من أهل غرناطة. له نظم جيّد، قال في مدح الرئيس أبي يحيى بن عاصم الأندلسيّ:

يَا مُطْلِعَ ٱلْأَنْوَارِ زَهْرًا يُجْتَنَى ... وَمُشَعْشِعَ ٱلصَّهْبَاءِ نَارًا تُلْمَسُ
بِكَ مَجْلِسُ ٱلْأُنْسِ ٱطْمَأَنَّ وَبِٱبْنِ عَا ... صِمٍ ٱطْمَأَنَّ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ مَجْلِسُ
بَدْرٌ بِأَنْوَارِ ٱلْهُدَى مُتَطَلِّعٌ ... غَيْثٌ بِأَشْتَاتِ ٱلنَّدَى مُتَبَجِّسُ
حَامَى فَلَمْ نَرْتَعْ لِخَطْبٍ يَعْتَرِي ... وَوَفَى فَلَمْ تَحْفِلْ بِدَهْرٍ يَبْخَسُ
شِيَمٌ مُهَذَّبَةٌ وَعِلْمٌ رَاسِخٌ ... وَمَكَارِمٌ هُتْنٌ وَمَجْدٌ أَقْعَسُ
لَوْ كَانَ شَخْصًا ذِكْرُهُ لَبَدَا عَلَى ... أَعْطَافِهِ مِنْ كُلِّ حَمْدٍ مَلْبَسُ
ذَاكُمْ أَبُو يَحْيَى بِهِ تُحْمَى ٱلْعُلَى ... وَبِهِ خِلَالُ ٱلْفَخْرِ طُرًّا تُحْرَسُ
بَيْتٌ عَلَى عَمَدِ ٱلْفَخَارِ مُطَنَّبٌ ... مَجْدٌ عَلَى مَتْنِ ٱلسِّمَاكِ مُؤَسَّسُ
إِنَّا لَنَغْدُو هُيَّمًا فَيُنِيلُنَا ... رِيًّا وَيُوحِشُنَا ٱلنَّوَى فَيُؤَنِّسُ

لَمْ نَدْرِ قَبْلَ يَرَاعِهِ وَبَنَانِهِ	أَنَّ ٱلذَّوَابِلَ بِٱلْغَمَامِ تَبَجَّسُ
هُنَّ ٱلْيَرَاعُ بِهَا يُؤَمَّنُ خَائِفٌ	وَيُحَاطُ مَذْعُورٌ وَيُغْنَى مُفْلِسُ
مَهْمَا ٱنْبَرَتْ فَهْيَ ٱلسِّهَامُ يُرَى لَهَا	وَقْعٌ لِأَغْرَاضِ ٱلْبَيَانِ مُقَرْطِسُ
يَشْفَى بِمَأْمَلِهِ ٱلشَّكِيُّ ٱلْمُعْتَرَى	يَحْيَا بِمَأْمَنِهِ ٱلْحَمَامُ ٱلْمُؤْيِسُ
قَدْ جَمَّعَ ٱلْأَضْدَادَ فِي حَرَكَاتِهِ	فَلِذَا ٱطَّرَادُ فَخَارِهِ لَا يُعْكَسُ
عَطْشَانُ ذُو رِيٍّ يَبِيسٌ مُثْمِرٌ	غَضْبَانُ ذُو صَفْحٍ فَصِيحٌ أخرسُ
لِلَّهِ مِنْ تِلْكَ ٱلْيَرَاعِ جَوَاذِبٌ	لِلسِّحْرِ مِنْكَ كَأَنَّهَا ٱلْمَغْنِيطِسُ
رُضْنَا شِمَاسَ ٱلْقَوْلِ فِي أَوْصَافِهَا	فَهِيَ ٱلَّتِي رَاضَتْ لَنَا مَا يَشْمُسُ
وَإِلَيْكَهَا حُلَلًا تَشَابَهَ نَسْجُهَا	مِثْلِي يُفَصِّلُهَا وَمِثْلُكَ يَلْبَسُ
وَٱهْنَأْ بِعِيدٍ بَاسِمٍ مُتَهَلِّلٍ	وَافَاكَ يَجْهَرُ بِٱلسُّرُورِ وَيَهْمِسُ
وَٱحْبِسْ لِوَاءَ ٱلْفَخْرِ مَوْقُوفًا فَإِ(م)نَّ ٱلْحَمْدَ مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ مُحَبَّسُ

★ ★ ★

الشيخ ناصيف اليازجي في مدح أسعد باشا

هو ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط الشهير باليازجيّ (١٢١٤ هـ / ١٨٠٠ م - ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م)، شاعر من كبار الأدباء في عصره. أصله من حمص، ومولده في كفرشيما (لبنان)، ووفاته ببيروت. من مؤلّفاته «مجمع البحرين»، و«العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيب». قال في مدح أسعد باشا قائد جيش البلاد العربيّة:

شَكَتْهُ الظُّبَى مِنْ كَثْرَةِ الضَّرْبِ فاشْتَكَى ... تَكَسُّرَها مِنْ ضَرْبِهِ في المفارِقِ

ومَلَّتْ ظُهُورُ ٱلْخَيْلِ منهُ فَمَلَّها ... إذا لم تُخَضَّبْ من دَمٍ بِشَقائِقِ

إذا قامَ مِنْ تَحْت ٱلسُّرادِقِ راكِبًا ... أقامَ عَجاجًا فَوْقَهُ كٱلسُّرادِقِ

ولَمَّا رَأَينا كَيْفَ تَنْقَضُّ خَيْلُهُ ... عَلِمْنا بِها كَيْفَ ٱنقِضاضُ ٱلصَّواعِقِ

إذا ما رَمَى يَوْمًا بِهِنَّ عَواصِمًا ... ضَحِكْنَ على أَسْوارِها وٱلخَنادِقِ

تُفارِقُ أَطْرافَ ٱلبِلادِ خُيُولُهُ ... وأَصواتُها في قَلْبِها لم تُفارِقِ

يَطَأْنَ ٱلحَصَى كٱلتُّرْبِ غَيْرَ عَواثِرٍ ... ومُلْسَ ٱلصَّفا كٱلرَّمْلِ غَيْرَ زَواهِقِ

ويَحْسَبْنَ وَحْشَ ٱلغابِ آرامَ رامةٍ ... ويَحْسَبْنَ غابَ ٱلوَحْشِ زَهْرَ ٱلحَدائِقِ

عليها أُسُودٌ تَتَّقي عارَ هارِبٍ ... ولا تَتَّقي في ٱلكَرِّ وَقْبَةَ غاسِقِ

رِماحٌ بِأَيديها رِماحٌ طَويلَةٌ … تُمزِّقُ شَمْلَ ٱلقَوْمِ في كُلِّ مازِقِ
يَنِضُّ دَمًا ما ٱندَقَّ مِنها فإنَّهُ … قَتيلٌ بِثاراتِ ٱلضُّلُوعِ ٱلسَّواحِقِ
إذا نابَ خَطْبُ ٱلدَّهْرِ فٱدْعُ تَيَمُّنًا … بِأَسعَدِ خَلْقِ اللهِ دِعْوَةَ واثِقِ
عَزيزٌ أذَلَّ ٱلدَّهْرَ وَهْوَ عَدُوُّهُ … لِأَنَّ ٱلخَنا في سُوقِهِ غَيْرُ نافِقِ
كَرِيمُ ٱلسَّجايا مِلْءُ قَلْبِ مُؤَمِّلٍ … وراحَةِ مُسْتَجْدٍ وَمُقلَةِ رامِقِ
لهُ في عُيُوبِ ٱلنَّاسِ نِظْرَةُ غافِلٍ … وفي غامِضاتِ ٱلسِّرِّ نِظْرَةُ حاذِقِ
يُسَرُّ بِما يُعطي مَسَرَّةَ آخِذٍ … فَيَشْكُرُ مِنَّا طارِقًا شُكْرَ طارِقِ
صَحِيحُ بَنانٍ تَضْبِطُ ٱلمُلْكَ دَهْرَهُ … ولا تَضْبِطُ ٱلدِّينارَ بِضْعَ دَقائِقِ
إلى دارِهِ ٱلرُّكبانُ تَهْوي فَتَنْثَني … مُشاةً لِوِقْرِ ٱلمالِ فَوْقَ ٱلأَيانِقِ
لَهُ في رُؤُوسِ ٱلْقَوْمِ تيجانُ نِعمةٍ … وأطواقُ أَمْنٍ في نُحورِ ٱلعَواتِقِ
وعَيْنٌ تُراعي نَفْسَهُ قَبْلَ غَيْرِهِ … فَلا يَتَوَلَّى عِرْضَهُ سَهْمُ راشِقِ
خَتَمْتُ على نَظْمِ ٱلقَوافي فَفَضُّهُ … كَريمٌ عليهِ هانَ فَتْحُ ٱلمغالِقِ
تَضِيقُ بِحارُ ٱلشِّعرِ عَنهُ وتَستَحِي … بِبَحْرٍ لَها في بَحْرِ كَفَّيْهِ غارِقِ
إلَيْكَ حَمَلْنا طَيِّبَ ٱلكَلِمِ ٱلَّذي … إلى ٱللهِ يُهدَى دُونَ جُرْدِ ٱلسوابِقِ
لَقَد فُقْتَ أَهلَ ٱلفَضْلِ فٱلقَوْمُ فَضْلَةٌ … ومَنْ لي بِوَصْفٍ مِثلِ فَضْلِك فائقِ
إذا كُنْتَ بِدْعًا في ٱلكِرامِ كما نَرَى … فَلَبَّيْكَ إنّي شاعِرٌ غيرُ سارِقِ

★ ★ ★

الشيخ إبراهيم اليازجي في مدح صبحي باشا

هو إبراهيم بن ناصيف بن عبدالله (١٢٦٣ هـ/١٨٤٧م - ١٣٢٤ هـ/١٩٠٦م) عالم باللغة والأدب. كان من الطراز الأول في كتاب عصره. كان رزقه من شقّ قلمه، فعاش فقيرًا، غنيّ القلب، أبيّ النفس. من مؤلّفاته: «نجعة الرائد في المترادف والمتوارد»، وديوان شعر. قال في مدح صبحي باشا:

هٰذا وزيرُ ٱلمُلْكِ ذو ٱلشَّرَفِ ٱلَّذي ... أزرَى ٱلثُّريَّا وٱلسِّماكَ ٱلأعْزَلا
أمضَى مِنَ ٱلسَّهْمِ ٱلمُذَلَّقِ نَظْرةً ... في كُلِّ مُعظَمةٍ وأفتَكُ مَقْتَلا
وأسَدُّ مَنْ عَرَكَ ٱلأُمُورَ تَصَرُّفًا ... في حِينٍ لا يَجِدُ ٱللَّبيبُ مُعَوَّلا
وَلِيَ ٱلبلادَ فَكانَ فيها عَدْلُهُ ... ظِلًّا وكانَ ٱلأَمْنُ فيها مَنْهَلا
أَبَدًا يُراعيها بِطَرْفٍ ساهِرٍ ... حَلَفَ ٱلحِفاظُ عليهِ أنْ لا يَغْفُلا
فَصْلُ ٱلخِطابِ إذا قَضَى وإذا ٱنْبَرَى ... يَحْكي بِهِمَّتِهِ ٱلقَضاءَ ٱلمُنزَلا
وإذا يَفُوهُ تَناثَرَتْ مِن لَفْظِهِ ... دُرَرٌ تُقَلِّدُها ٱلمَعاصِمُ وٱلطُّلَى
تَهْوِي ٱلنُّفُوسُ عليهِ من أَلطافِهِ ... فَتَرُدُّها عنهُ المَهابَةُ وٱلعُلَى
حاوَلْتُ أنْ أُثنِي عليكَ فَخانَني ... قَلَمٌ أراهُ غدا بِكَفِّي مِغْزَلا
فرأيتُ مَدْحَكَ لا تَفيهِ عِبارةٌ ... ورأيتُ مَدْحَ ٱلأَكْثَرِينَ تَمَحُّلا

وعَذَلْتُ تَقْصِيرِي بِوَصْفِكَ عاجزاً وعَلِمْتَهُ فَعَذَرْتَني مُتَفَضِّلا
ولَعَلَّ عَجْزِي في مَدِيحِكَ ناطِقٌ عَنّي بِأَفصَحَ من ثَنايَ وأطوَلا
وٱلصُّبْحُ أوضَحُ من مَقالَةِ قائِلٍ لاحَ ٱلصَّباحُ إذا تأَلَّقَ وٱنجَلَى

★ ★ ★

الشيخ خليل اليازجيّ في مَدْح الخديويّ توفيق

هو خليل بن ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط (١٢٧٣ هـ/ ١٨٥٦ م - ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٩ م). أديب لبناني له شعر. من مؤلّفاته «نسمات الأوراق» نظمًا، و«الوسائل إلى إنشاء الرسائل».

والممدوح هو الخديوي محمد توفيق بن اسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي (١٢٦٩ هـ/ ١٨٥٢ م - ١٣٠٩ هـ/ ١٨٩٢ م). في أيامه أُنشِيء نظام الشورى، وأُنْشِئت المحاكم الأهليّة.

قَيَّدْتَ نَفْسَكَ بِٱلثَّباتِ شَجاعةً ... إنَّ ٱلمُقَيِّدَ نَفْسَهُ لَطَليقُ
وَثَبَتَّ فَرْدًا في ٱلخُطُوبِ كَأَنَّما ... لَكَ مِنْ فَريقِ ٱلنّائِباتِ رَفِيقُ
فَتَهَلَّلَتْ مِصْرٌ لَدَيْكَ كَأَنَّها ... صَفْحُ ٱلمُحَيّا مِنْكَ وَهْوَ طَلِيقُ
وٱلنِّيلُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَلْمَعُ وَجْهُهُ ... مُتَبَسِّمًا ولِكَفِّهِ تَصْفِيقُ
في ضِفَّتَيْهِ لِلِاخْضِرارِ زَبَرْجَدٌ ... مِنْ خِصْبِها ولهُ ٱلعَقِيقُ عَقِيقُ
لَوْ لم يَكُن مِنْهُ ٱلتَّكَدُّرُ نافِعًا ... وٱلنَّفْعُ ما تَبْغي لَكانَ يَرُوقُ
نِيلٌ يُلاقي مِنْكَ نِيلًا آخَرًا ... لِلْعَدْلِ لَيْسَ يَشُوبُهُ تَرْنيقُ
شَرِبَتْ بِهِ مِصْرٌ بِظِلِّكَ أَكْؤُسًا ... طَرِبَتْ بِها فَكَأَنَّهُنَّ رَحِيقُ

تجْرِي لَدَى وُرَّادِها وكأنّها مآءُ ٱلحَيَاةِ لَدَيْهِم مَدْفُوقُ

وتَشِفُّ عَنْ أَنْوارِ عَدْلِكَ دَائِمًا فَلَهُمْ صَبُوحٌ لا يَليهِ غَبُوقُ

ولَكَ ٱلحِسانُ مِنَ ٱلخَلائِقِ دُونَها ما في العقودِ زَبَرْجَدٌ وعَقِيقُ

وذَكاءُ فِكْرٍ ثَاقِبٍ مُتَوَقِّدٍ تَجْلُو ظَلامَ ٱلخَطْبِ مِنْهُ بُرُوقُ

ويَكَادُ عِنْدَكَ لِلْبَداهَةِ وَٱلحِجَى قَبْلَ ٱلتَّصَوُّرِ يُدْرَكُ ٱلتَّصْدِيقُ

فَرْعُ ٱلْعَليِّ مُحَمَّدٍ وَكَذَا ٱلْفُرُو عُ تَطِيبُ إنْ طابَتْ لَهُنَّ عُرُوق

عِزٌّ بَناهُ مِنَ ٱلْقَدِيمِ فإنَّهُ بَيْتٌ تَحُجُّ لَهُ ٱلسُّعُودُ عَتِيقُ

أَسَّسْتُمُوهُ على ٱلْعُلَى وَٱلْحَمْدِ مِنْ قِدَمٍ فَذٰلِكَ فِي ٱلْفِخَارِ عَرِيقُ

بِٱلسَّعْدِ مَقْرُونٌ لَفِيفُكُمُ ٱلَّذِي أَبَدًا لَفِيفُ عَدُوِّهِ مَفرُوقُ

فَٱنْعَمْ فَدَاكَ ٱلمُبْغِضُوكَ بِرَغْمِهِمْ وَلَطالَما طَوْعًا فَدَاكَ صَدِيقُ

★ ★ ★

الفصل الثالث

مديح العلماء والأدباء

لقد تغنّى الشعراء بشعرهم فصوّروه منتقلًا على كلّ لسان، جديرًا بالخلود بينما شعر غيرهم هو صدى لشعرهم. وحين قالوا الشعر في غيرهم من الأدباء والكتّاب والشعراء والعلماء أجادوا في مدحهم، فأثنوا على قوّة البيان وروعة الأدب وفضيلة العلم. فقد مدح بشّار واصل بن عطاء، وكان يلثغ بالرّاء، لكنّه في خطبه يتخلّص منها ببراعته وقال فيه:

فقـــام مـــرتجلًا تغلـــي بـــداهَتُـــهُ　　كمرجلِ القَينِ لمّـا حـفّ بـاللَّهـبِ
وجَانَـبَ الرّاء لـم يشعـرْ بهـا أَحَـدٌ　　قبل التصفّح والإغـراق فـي الطّلـبِ

فشبه الشاعر ارتجاله في الكلام بغليان المرجل وقد حفّ به اللّهب، وذكر تجنّبه الرّاء في كلامه مع براعة ودقّة في التعبير.

وقال أبو تمّام يمدح محمد بن عبد الملك الهاشميّ لحكمته وبلاغته:

لقمـــان صمتـــاً وحكمـــة فـــإذا　　قـال لقطنـا اليـاقـوت مـن خُطَبِـهْ

وقال في مدح الشاعر والكاتب محمد بن عبد الملك الزيّات:

لـكَ القلـمُ الأعلـى الذي بشبـاتـه　　تُصابُ من الأمر الكلى والمفـاصـلُ
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغتْ　　عليه شعـابُ الفكـر وَهْـيَ حـوافـلُ

أطـاعتْـهُ أطـراف القنـا وتقـوّضـتْ　　لنجواهُ تقـويـضَ الخيـام الجحـافـلُ

فصوّر القلم قاطعًا كالسيف إذا أمسكت به أصابع الأديب يفعل في الأعداء فعل الجيوش الجحافل.

والبحتري مدح هذا الوزير الكاتب نفسه وقال يصف أدبه:

وبـديـعٍ كـأنّـه الزّهـر الضّـا　　حِـكُ فـي رونـقِ الربيـعِ الجـديـدِ
مشرق في جـوانـب السّمْـع مـا يخـ　　ـلقُـهُ عَـوْدُهُ علـى المستعيـدِ

فاذا هو أدب شبيه بزهور الربيع لا يملّ السّامع منه بل يطلب الإعادة والمزيد لما يتركه في النفس والأذن من آثار طيّبة.

أمّا ابن الرومي فقد مدح الكاتب عبيدالله وأشاد بقدرته على تـركيـب الألفـاظ حين قال فيه:

وأنـتَ الذي يـدعـو الكلامَ بقُـدْرَةٍ　　فيـأتيـهِ وحشـيٌّ الكلام وآنِسُـهْ

وقال المتنبي في عليّ بن عامر الإنطاكي وكان ضليعًا في أصناف العلوم والنجوم والأدب:

دعاني اليـك العلـم والحلـم والحجـا　　وهـذا الكلامُ النّظـمُ والنّـائـلُ النَّثْـرُ

ومدح المتنبي الكاتب ابن العميد وجعله في حكمته كارسطو وفي بأسه كالإسكندر وفي معرفته وحكمته كبطليموس.

أمّا الشريف الرضي فقد مدح الصاحب إسماعيل بن عبّاد فرأى قلمه أمضى من السيوف العوالي:

لَكَ القلمُ الماضـي الذي لـو قَـرَنْتَـهُ　　بجَرْيِ العوالي كان أجـرى وأَجْـودا

وزاد هذا اللون من المديح في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فقد امتدح حافظ ابراهيم الإمام محمد عبده فالتفّ النّاس حوله كأنه ابن الخطاب أو علي بن ابي طالب. ومدح شوقي كثيراً من العلماء والادباء وكان ينشد في كلّ مناسبة قصيدة على عادة أبناء الغرب الذين كانوا يقيمون الحفلات التكريميّة يرسلون فيها الخطب في الشعر والنثر لمناسبة إقامة مشروع أو افتتاح مصرف أو تأسيس جامعة.
وهذا اللون من أدب المناسبة جديد على الأدب العربي، لكنّ شعراءنا خاضوا فيه وتسابقوا، واعتلوا المنابر، فصفّقت لهم الأكفّ، ونشرت الصحافة أقوالهم في كلّ قطر، فحملتها الريح مع كلّ غبار.

أمين نخلة في مدح بشارة الخوري

هو الشاعر اللبنانيّ الأديب أمين رشيد نخلة، صاحب مدرسة تركت طابعها في الشعر، والنثر، والخطابة، والقانون، جمع في أسلوبه رقّة الجديد ولطافته إلى روعة القديم وجزالته، فجاء مجلوًّا مصقولًا على كثير من العناية والتفنّن. من مؤلّفاته «دفتر الغزل»، و«المفكّرة الريفيّة».

والممدوح هو بشارة بن عبدالله الخوري البيروتي، أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث. له ديوان «الهوى والشباب»، و«شعر الأخطل الصغير».

والقصيدة التالية قالها أمين نخلة في قصر الأونيسكو في بيروت في احتفال لتكريم الأخطل الصغير ومبايعته بإمارة الشعر بعد أن حملها أحمد شوقي سنة ١٩٢٧م.

أيقولون: أخطلٌ، وصغيرُ! ... أنتَ في دولة القوافي أميرُ
ولك التاجُ، والمطارفُ، والبُرْدُ ... وركنٌ مجلّلٌ، وسريرُ[1]
فاسحبِ الذيلَ ما تشاءُ، وجرِّرْ، ... إنَّ ملكَ البيانِ ملكٌ كبيرُ!
وضعَ العصرُ في يديكَ أماناتِ ... القوافي، والعبءُ حيثُ الجديرُ

(١) المطارف: جمع مطرف، وهو رداء من جرير. البرد: الثوب المخطَّط. ركن مجلَّل: جانب معظَّم.

قد أبى الله في الفصاحة أن يغدوَ منّا في العالمين أخيرُ..
فارفعِ الصوتَ، إنّه صوتُ لبنانَ وردّدْ به، ونِعمَ الجهيرُ[1]
مُخوِلٌ أنت في الفخار، مُعِمٌّ، فلنا في العصور جاهٌ أثيرُ...[2]
لم تغرّدْ فصاحةُ العُرْب إلّا كان منّا المغرّدُ الشّحرورُ!

★ ★ ★

غزلٌ رقَّ كالرنين على الوَجْدِ، ولانت له القلوبُ الصخورُ
تسمعُ الدقَّ فيه للقلب، بل تنظر دمعًا يجري، ودمعًا يفورُ..
هُوَ زَادُ العُشّاق، أُنسُ لياليهم وكأسٌ بين النّدامى تدورْ
ومَبانٍ من دقّة النسج أثْناءُ حبيرٍ، لا أحرفٌ، وسطورُ[3]
ومعانٍ كأنَّ مُدْهُنَةَ المسكِ وقد حُرّكت، وفاحَ العبيرُ[4]

★ ★ ★

ذاكَ غيرُ الجزيلِ في الرأي، والحكمةِ، وهو المردَّدُ، المأثورُ[5]
أتُرى الحسنُ في الوجود تجلّى ليراه هذا اللسانُ البصيرُ...
رُبَّ قولٍ له على الظُّلَلِ الخُضْرِ، وقد حفّها صَبًا، وبَكورُ[6]

---

(١) الجهير: العالي.
(٢) مخْوِل، مُعِمّ: كريم الأخوال والأعمام. أثير: مشهور، معروف.
(٣) الأثناء: جمع ثنْي، وهو طيّ الثوب. حبير: برد مُوشّى.
(٤) مدهنة: قارورة الدهن.
(٥) الجزيل: الكثير.
(٦) الظلل: جمع ظلال. الصَّبا: ريح خفيفة شرقيّة. بكور: أوّل مطر الربيع.

تخرج العينُ منه بالوهم، لا تَـدْري أروضٌ يهتــزُّ، أم تصــويـــرُ!
وخيــالٍ كــأنّمــا غَمَــرَ الدُّنْيــا ومـا ضــاق عنــه سَطــرٌ قصيـرُ!
عَمْـرَكَ اللهَ: هــل رأيــتَ كبيــت الشِّعرِ كهفًـا يـأوي إليـه الضَّميـرُ[1]
بيـن شطـريـه قـد أُتيـحَ بيــاضٌ، وانفســاحٌ، فلينــزِلِ المعمــورُ...

★ ★ ★

يا أخي الأبلـجَ، الكـريـمَ على الوُدِّ زهـانــي بمــا زهــاكَ الســرورُ[2]
فكـأنّـي أنـا الذي هتفـوا بـاسمي، وعــجَّ المنظـــومُ، والمنشـــورُ
جمعتنــا علــى الوداد القــوافــي، والهـوى الضَّخـمُ، والطِّلابُ الخطيـرُ
لا، وحبيّـكَ، مـا أنـا الحــاســدُ الشّانىء أو طـامـع حـداه الغـرورُ[3]
أنـا مُصفيـكَ فـي الشبــاب، وفــي الشّيْـبِ، إخـاءً لا يعتـريـه فتـورُ[4]
يـا مُغنّـي الصّبـا، ومـن ذا يُغنّيــهِ، إذا أمســكَ المغنّـي القـديـــرُ[5]
جـاءك الشيـبُ بـالأزاهــرِ بيضًــا، فعلــى كــلِّ شعــرةٍ منــه نــورُ

★ ★ ★

(١) عمرك الله: تعبير يقال في الدعاء للآخر، والمعنى: أعطاكَ الله عمّرا مديدًا.
(٢) الأبلج: الجميل.
(٣) الشانئ: المبغض.
(٤) مصفيك: مخلص لك الودّ.
(٥) أمسك: امتنع عن الكلام، سكت.

الفصل الخامس

مديح الأوطان والبلدان

١ ـ مديح الأوطان

أحبّ الإنسان الأرض التي عاش فيها أكانت قاحلة أم خصبة، لأنّها رافقت عهدًا من عهود حياته وعرفت شطرًا من أيّام عمره، فحنّ إليها وهو بعيد، واطمأنّ إليها وهو قريب، فانشد فيها شعره حنينًا وحرقة، وامتدح فيها الخير والبركة والنعيم لا لأنها خير وبركة ونعيم حقًّا بل لأنّها قطعة من عمره وفلذة من وجدانه. وقد اشتهر العرب في هذا المديح منذ الجاهلية وما زالوا حتّى اليوم.

يقول أحد شعراء العرب القدماء أحمد بن يحيى في بلاده التي أحبّها:

أحبُّ بلاد الله ما بين منعجٍ　　إلى دار سلمى أن يصوبَ سحابُها
بلادٌ بها حلّ الشباب تمائمي　　وأوّلُ أرضٍ مسّ جلدي ترابُها

فتلك الأرض التي لامس جلده ترابها للمرة الأولى هي أحبّ أرضٍ إليه، وهي بالتالي وطنه وموضع حبّه وتقديسه، وهو بذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن، لا تدخله فلسفة ولا منطق، ولا تحدّه علوم وقوانين، ولا تفرضه حقوق أو واجبات.

ثم نرى ابن الرومي يزيد على زميله تعريفًا بالوطن حين يقول:

بلدٌ صَحِبْتُ به الشَّبيبَة والصِّبا ولَبِسْتُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ

فاذا به يصوّر لنا الوطن تصويرًا جميلًا يتمثّله في ضميره حيث الشباب والعيش النضير. وهذا التصوير يشبه الى حدٍّ بعيد ما ورد على لسان الشاعر القائل:

تمتَّعْ من شميم عَرارِ نجدٍ فما بعد العشيَّةِ من عرارِ

والعرار هو النبت الطيّب يملأ أنف الشاعر ورئتيه وهو في نظره أفضل من النخيل على ضفاف النيل أو الفرات. فالديار عزيزة لأنّها موطن الأصدقاء وموضع الذكريات، ولا يكون الحبّ للربوع إعجابًا بالحجر والشجر والماء والزهر، وإنّما يكون لما ينعكس منها في النفس وينسكب في الروح ويجري في العروق. هذا هو الوطن الذي ينصرف عنه المرء وفي كبده تصدّع ويعود إليه وفي نفسه شفاء، فكأنّما النعيم هو القرب منه والجحيم هو البعد عنه.

وقد تبدّلت نظرة الشاعر العربي الى الوطن مع تقدّم الأجيال، فإذا بأبي تمّام يعبر عن حبّه لوطنه، في القرن الثالث الهجري، على الشكل التالي:

بالشّام قَومي وبغدادِ الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط إخواني

ونحن اليوم ننظر بعينيّ أبي تمّام الى هذا الوطن الكبير من أقصى بغداد إلى الفسطاط، ومن الرقمتين إلى الشام ونحسد الشاعر الجاهلي في دفاعه عن الخيام التي يثير الحرب العوان من أجلها ويستميت في الدفاع عنها.

وقد عبّر الشعراء، الذين غادروا ديارهم، عن شوقهم الى تلك الديار وبكوا لبعدهم عنها كما فعل أبو فراس في القدماء وشوقي في المحدثين حين يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعةً ولم يخلُ حِسّي

إنّ وطنه لم يبرح من خياله ولن تلهيه عنه جنّات النعيم.

والشعر الوطني كثير في الأدب العربي لا يمكن حصره في دراسة أو عرضه في صفحات، وإنّما نشير الى أن الوطن العربي قد مرّت به هزّات عنيفة على مرّ الأجيال، فقد غادر العرب الأندلس بما فيها من قصور بنوها وبما تمتاز به من مناخ، فبكوها بكاءً لا ينقطع ورثوها في أشعارهم. وقد نكب العرب بهجمات الترك والمغول والتتار، فهجروا ديارهم ومدحوا أوطانهم مديحًا اختلطت فيه المدامع بالاشواق والتنهّدات. ثم هجمت على ديارهم جيوش الغرب في القرن الثالث عشر للميلاد باسم الدين واحتلّت جزءًا من أرضهم، فهجروا وسافروا وتغرّبوا. وقد عادت هذه الجيوش مرّة أخرى باسم الحضارة والمدنيّة والانتداب، فهاجر الأحرار الى خارج أوطانهم وأرسلوا مديحهم في الوطن وحبّ الديار، فجاء ثناء عاطرًا على النيل ودجلة وبردى. وما لبث الحكم التركي أن أطلّ عليهم فضاقت بهم الأرض من جديد وهاجروا إلى ديار العالم الجديد، ولكنّ قلبهم ظل عالقًا بصخور لبنان وينابيع الشّام. أما المأساة الأخيرة التي فجّرت أشعارهم فكانت نكبة أهل فلسطين التي كانت وما زالت معينهم الذي لا ينضب في التعبير.

٢ ـ مديح البلدان

تعلّق الشعراء منذ القديم بحواضر ومدن وبلدان معيّنة فامتدحوها بشعرهم، وسالت فيها عواطفهم حبًّا وإعجابًا وحنينًا. فمالوا الى مكّة والمدينة، وقالوا فيهما شعرًا هو أقرب الى الشعر الديني لما فيه من تقديس وإقرار بفضلهما في ولادة النور والهدى. وقال الشعراء في مدينة بغداد شعرًا كثيرًا لأنّها ظلّت طويلًا موطن الملك ومحطّ الأنظار ومصنع التاريخ الإسلامي خلال عدّة قرون، فقال فيها ابن زريق:

هيهات بغدادُ الدنيا بأجمعها　　عندي وسكانُ بغدادٍ همُ النّاسُ

وقيل الشعر الكثير في فضائل مدينة حلب ودمشق ومصر وغيرها من البلدان، ولو جمع الشعر الذي قيل لزاد على ديوان كبير. وقد اشتهر الصنوبري بمدح البلدان، فأشاد بحلب ووصفها بقصيدة طويلة ذاكرًا جامعها وسروها وساحاتها وميادينها وحاراتها حيث يقول فيها:

فـاخِـري يـا حلـبُ المـدْ نَ يـزدْ جـاهـكِ جـاهـا

فلعمـري إنْ تَـكُ المـدْ نُ رخـاخـاً كنـتِ شـاهـا

فهو يرى أنّها أجمل مدن العالم، وهي في نظره شاه الشطرنج والمدن الباقية هي رخاخ فيه. ثم يمتدح دمشق فيرى فيها الدنيا بأسرها حين يقول فيها:

صَفَتْ دنيـا دمشـقَ لسـاكنيهـا فلستَ تـرى بغيـر دمشـقَ دُنيـا

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك، فأثنوا على ما رأوا فيها داخل الوطن وخارجه. فنظم شوقي شعرًا في مدح باريس، والنيل، وبردى، ودمشق، وزحلة، ولبنان، والآستانة وأسبانيا. قال في بردى قاصدًا دمشق:

جـرى وصَفَّـقَ يلقـانـا بهـا بَـرَدى كمـا تلقَّـاكَ دُون الخلْـد رضـوانُ

وقال في لبنان وعاصمته بيروت، وقد جعلهما من أبدع مخلوقات الله:

لبنـان والخلـد اختـراع الله لـم يـوسَـمْ بـأروعَ منهمـا ملكـوتُـهُ

هو ذروةٌ في الحسـنِ غيـرُ مـرومـةٍ وذرا البـراعـة والحجـى بيـروتُـهُ

وقال في مدينة «زحلة» مسقط رأس زميله خليل مطران مكنّيًا عنها «بجارة الوادي».

يـا جـارة الوادي طـربـتُ وعـادنـي مـا يشبـه الأحلامَ مـن ذكـراكِ

ومدح كثير من شعرائنا مدنًا في البلاد العربيّة كالبصرة وبغداد وقرى لبنان ومصر، كما مدح شعراء المهجر مولد عبقريتهم، فعاجوا بالذكرى إلى أوطانهم الأمّ وصاغوا في حنينهم إليها ذوب عاطفتهم ورقيق شعرهم.

إيليا أبو ماضي

هو إيليا بن ضاهر أبو ماضي (١٨٨٩م/١٣٠٦هـ - ١٩٥٧م/١٣٧٧هـ). أحد كبار شعراء المهجر. ومن أعضاء الرابطة القلميّة فيه. ولد في قرية «المحيدثة» بلبنان، وسكن الإسكندريَّة، وهاجر إلى أميركا. أصدر جريدة «السمير». له «تذكار الماضي»، و«الجداول»، و«الخمائل».

وطنَ النجوم

وَطَنَ النُّجُومِ أَنَا هُنَا حَدِّقْ أَتَذْكُرُ مَنْ أَنَا؟
أَلَمَحْتَ فِي المَاضِي البَعِيدِ فَتًى غَرِيرًا أَرْعَنَا؟
جَذْلانَ يَمْرَحُ فِي حُقُولِكَ كَالنَّسِيمِ مُدَنْدِنَا
يَتَسَلَّقُ الأَشْجَارَ لا ضَجَرًا يُحِسُّ ولا وَنَى
وَيَعُودُ بِالأَغْصَانِ يَبْرِيهَا سُيُوفًا أو قَنَا
وَيَخُوضُ فِي وَحْلِ الشِّتَا مُتَهَلِّلًا مُتَيَمِّنَا
لا يَتَّقِي شَرَّ العُيُونِ ولا يَخَافُ الأَلْسُنَا
وَلَكَمْ تَشَيْطَنَ كَي يَدُورَ القَوْلُ عَنْهُ تَشَيْطَنَا

أنا ذٰلِكَ الوَلَدُ الذي ... دُنْيَاهُ كانَتْ هَاهُنَا
أنا مِنْ مِيَاهِكَ قَطْرَةٌ ... فاضَتْ جَدَاوِلَ مِنْ سَنَا
أنا مِنْ تُرَابِك ذَرَّةٌ ... ماجَتْ مَوَاكِبَ مِنْ مُنَى
أنا مِن طُيُورِكَ بُلْبُلٌ ... غَنَّى بِمَجْدِكَ فَٱغْتَنَى
حَمَلَ الطَّلاقَةَ والبشاشَةَ ... مِنْ رُبُوعِكَ للدُّنَى
كم عانَقَتْ رُوحي رُبَاكَ ... وَصَفَّقَتْ في المنْحَنَى؟
لِلْأَرْزِ يَهْزَأُ بالرِّياحِ ... وبالدُّهُورِ وبالفَنَا
لِلْبَحْرِ يَنْشُرُهُ بَنُوكَ ... حَضَارَةً وَتَمَدُّنَا
لِلَّيْلِ فيكَ مُصَلِّيًا ... لِلصُّبْحِ فيكَ مُؤَذِّنا
للشَّمْسِ تُبْطِئُ في وَدَاعِ ... ذُراكَ كَيلا تَحْزَنَا
لِلْبَدْرِ في نيسانَ يَكْحَلُ ... بالضِّيَاءِ الأعْيُنَا
فَيَذُوبُ في حَدَقِ المَهَى ... سِحْرًا لطيفًا لَيِّنا
لِلْحَقْلِ يَرْتَجِلُ الرَّوَائِعَ ... زَنْبَقًا أو سَوْسَنَا
لِلْعُشْبِ أثْقَلَهُ النَّدى ... لِلْغُصْنِ أثْقَلَهُ الجَنَى
عاشَ الجمالُ مُشَرَّدًا ... في الأرْضِ يَنْشُدُ مَسْكَنَا
حتّى ٱنْكَشَفْتَ لَهُ فَألْقَى ... رَحْلَهُ وَتَوَطَّنَا
واسْتَعْرَضَ الفَنُّ الجَبَالَ ... فَكُنْتَ أنْتَ الأحْسَنَا

★ ★ ★

لمصر أم لربوع الشّام

لحافظ إبراهيم (*)

لِمِصْرَ أَمْ لِرُبُوعِ الشامِ تَنْتَسِبُ	هنا العُلى وهُنَاكَ المجْدُ والحَسَبُ
خِدْرانِ للضّادِ لم تُهْتَكْ سُتُورُهُما	ولا تَحَوَّلَ عن مَغْنَاهُمَا الأَدَبُ[1]
أُمُّ اللُّغَاتِ غداةَ الفَخْرِ أُمُّهُما	وإنْ سَأَلْتَ عَنِ الآباءِ فالعَرَبُ
أَيَرْغَبانِ عَنِ الحُسْنَى وَبَيْنَهُما	تِلْكَ القَرابَةُ لم يُقْطَعْ لها سَبَبُ
إذا أَلَمَّتْ بِوَادي النيلِ نَازِلَةٌ	باتَتْ لها راسِيَاتُ الشامِ تَضْطَرِبُ
وإنْ دَعَا في ثَرَى الأهرامِ ذُو أَلَمٍ	أجابَهُ في ذُرَى لبنانَ مُنْتَحِبُ
لَوْ أَخْلَصَ النِّيلُ والأرْدُنُّ وُدَّهُما	تَصَافَحَتْ منهما الأمْوَاهُ والعُشُبُ
نَسِيمَ لبنانَ كم جادَتْكَ عاطِرَةٌ	مِنَ الرِّياضِ وكم حَيَّاكَ مُنْسَكِبُ
في الشَّرقِ والغَرْبِ أنْفاسٌ مُسَعَّرةٌ	تَهْفُو إليكَ وأكبادٌ لها لَهَبُ
لَوْلا طِلَابُ العُلَى لم يَبْتَغُوا بَدَلًا	مِنْ طيبِ رَيَّاكَ لكنّ العلى تعبُ
بأرض كولمب أبْطالٌ غَطَارِفَةٌ	أُسْدٌ جياعٌ إذا ما وُوثِبُوا وَثَبُوا[2]

(*) سبق التعريف به.

(١) خدران للضاد: موطنان للغة العربيّة.

(٢) كولمب: أي أميركا.

لم يَحْمِهِمْ عَلَمٌ فيها ولا عَدَدٌ سِوَى مَضَاءٍ تَحَامَى وِرْدَهُ النُّوَبُ
أَسْطُولُهُمْ أَمَلٌ في البحرِ مُرْتَحِلٌ وَجَيْشُهُمْ عَمَلٌ في البرِّ مُغْتَرِبُ
لم تَبْدُ بَارِقَةٌ في أفْقِ مُنْتَجِعٍ إلّا وكانَ لها بالشامِ مُرْتَقَبُ
ما عابَهُمْ أنّهُمْ في الأرْض قد نُثِرُوا فالشُّهْبُ مَنْثُورَةٌ مُذْ كانتِ الشُّهُبُ
رَادُوا المناهِلَ في الدُّنْيا وَلَوْ وَجَدْوا إلَى المجَرَّةِ رَكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا
أو قيلَ في الشَّمْسِ للرَّاجين مُنْتَجَعٌ مَدُّوا لها سَبَبًا في الجَوِّ وانْتَدَبُوا
سَعَوا إلى الكَسْبِ مَحْمُودًا وما فَتِئَتْ أُمُّ اللُّغَاتِ بذاكَ السَّعْيِ تَكْتَسِبُ
فَأَيْنَ كانَ الشآمِيُّونَ كانَ لَهَا عَيْشٌ جَدِيدٌ وفَضْلٌ لَيْسَ يَحْتَجِبُ
هٰذِي يَدِي عن بني مِصْرٍ تُصَافِحُكُم فَصَافِحُوها، تصافِحْ نَفْسَها العَرَبُ

★ ★ ★

دمشق يا جبهة المجد

شَمَمْتُ تُرْبَكِ لا زُلْفى ولا مَلَقا وَسِرْتُ قَصْدَكِ لا خِبًّا ولا مَذِقا[1]
وَمَا وَجَدْتُ إلى لُقْيَاكِ مُنْعَطَفًا إلّا إلَيْكِ ولا أَلْفَيْتُ مُفْتَرَقا
كُنْتِ الطَّرِيقَ إلى هَاوٍ تُنَازِعُهُ نَفْسٌ تَسُدُّ عَلَيْهِ دُونَها الطُّرُقا
وكانَ قَلْبي إلى رُؤْيَاكِ بَاصِرَتي حتّى اتَّهَمْتُ عليكِ العَيْنَ والحَدَقا
شَمَمْتُ تُرْبَكِ أسْتَافُ الصِّبَا مَرِحًا والشَّمْلَ مُؤْتَلِفًا والعِقْدَ مُؤْتَلِقا[2]
وسِرْتُ قَصْدَكِ لا كالمُشْتَهي بَلَدًا لٰكِنْ كَمَنْ يَتَشَهّى وَجْهَ مَنْ عَشِقا

---

(١) الخب: الخدّاع. المذق: المغشوش.
(٢) استاف: أشم.

قالُوا: «دِمَشْقُ» و«بَغْدادُ» فَقُلْتُ هُما ... فَجْرٌ على الغدِ مِنْ أَمْسَيْهما انْبَثَقا

ما تَعْجَبُون؟ أمِنْ مَهْدَيْنِ قَدْ جُمِعَا ... أمْ تَوْأَمَيْنِ على عَهْدَيْهما اتَّفَقا

أمْ صَامِدَيْنِ يَرِبَّانِ المَصِيرَ مَعًا ... حُبًّا، وَيَقْتَسِمانِ الأَمْنَ والفَرَقا

يُهَدْهِدان لِسَانًا واحِدًا وَدَمًا ... صِنْوًا ومُعْتَقَدًا حُرًّا ومُنْطَلَقا

«دِمَشْقُ» عِشْتُكِ رَيْعَانًا وَخَافِقَةً ... ولِمَّةً والعُيُونَ السُّودَ والأَرَقا

وها أنا وَيَدِي جِلْدٌ وَسَالِفَتِي ... ثَلْجٌ ووجهيَ عَظْمٌ كاد أو عُرِقا

وأنْتِ لم تَبْرَحي في النَّفْسِ عَالِقَةً ... دَمِي وَلَحْمِيَ والأَنْفَاسَ والرَّمَقا

تُمَوِّجِينَ ظِلالَ الذِّكرياتِ هَوًى ... وَتُسْعِدِينَ الأَسَى والهَمَّ والقَلَقا

محمد مهدي الجواهري

★ ★ ★

وقال أحمد شوقي في دمشق:

أَلَسْتِ دِمَشْقُ لِلإِسْلَامِ ظِئْرًا ... وَمُرْضِعَةُ الأُبُوَّةِ لا تُعَقُّ(١)

وَكُلُّ حَضَارَةٍ في الأَرْضِ طَالَتْ ... لها من سَرْحِكِ العُلْوِيِّ عِرْقُ(٢)

سَمَاؤُكِ مِنْ حِلَى المَاضِي كِتَابٌ ... وَأَرْضُكِ مِنْ حِلَى التَّارِيخِ رَقٌّ(٣)

بَنَيْتِ الدَّوْلَةَ الكُبْرَى وَمُلْكًا ... غُبَارُ حَضَارَتَيْهِ لا يُشَقُّ

لَهُ بِالشَّامِ أَعْلَامٌ وَعِرْسٌ ... بَشَائِرُهُ بِأَنْدَلُسٍ تَدُقُّ

★ ★ ★

(١) الظئر: المرأة المرضعة.

(٢) السرح: نوع من الشجر العالي.

(٣) الرق: الجلد الذي يكتب عليه.

أبيات رائعة في حب الوطن ومدحه

أُحِبُّ بِلادَ اللهِ ما بين منعج ... إلَى دارِ سَلْمَى أنْ يَصُوبَ سَحَابُها
بِلَادٌ بِها حَلَّ الشَّبَاب تَمَائِمي ... وَأوَّلُ أرضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُها

أحمد بن يحيى

★ ★ ★

بَلَدٌ صَحِبْتُ به الشَّبيبةَ والصِّبا ... وَلَبِسْتُ ثَوْبَ العَيْشِ وَهْوَ جَدِيدُ
فإذا تَمَثَّلَ في الضَّمِيرِ رَأَيْتَهُ ... وَعَلَيْهِ أفْنَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ

ابن الرومي

وَحَبَّبَ أوْطانَ الرِّجَال إلَيْهِمُ ... مَآرِبُ قَضَّاها الشَّبَابُ هُنَالِكَا
إذا ذَكَرُوا أوْطَانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ ... عُهُودَ الصِّبَى فيها فَحَنُّوا لِذَلِكَا

ابن الرومي

★ ★ ★

إذا دَنَتِ المَنَازِلُ زَادَ شَوْقي ... وَلَا سِيما إذا دَنَتِ الخِيَامُ
فَلَمْحُ العَيْنِ دُونَ الحَيِّ شهْرٌ ... وَرَجْعُ الطَّرْفِ دونَ السَّيْرِ عَامُ

بالشَّامِ قَوْمِي وَبَغْدَادُ الهَوَى وَأَنَا   بالرَّقْمَتَيْنِ وبالفُسْطَاطِ إخْوَانِي
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعَتْ   حَتَّى تُبَلِّغُنِي أَقْصَى خُرَاسَانِ

أبو تمام

★ ★ ★

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتَ بالخُلْدِ عَنْهُ   نَازَعَتْنِي إليهِ في الخُلْدِ نَفْسِي
وَهَفَا بالفُؤَادِ في سَلْسَبِيلٍ   ظَمَأٌ لِلسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسِ
شَهِدَ اللهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي   شَخْصُهُ سَاعَةً ولَمْ يَخْلُ حِسِّي

شوقي

★ ★ ★

وَنَسْمَةٍ كَشَمِيمِ الخُلْدِ قَدْ حَمَلَتْ   رَيَّا الأَزَاهِيرِ مِنْ مَيْتٍ وَأَجْرَاعِ[1]
هَلَّا أَرَانِي بِذَاكَ الحَيِّ مُجْتَمِعًا   بِأَهْلِ وُدِّيَ مِنْ قَوْمِي وأَشْيَاعِي

محمود البارودي

★ ★ ★

هَيْهَاتِ بَغْدَادُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا   عِنْدِي وَسُكَّانُ بَغْدَادٍ هُمُ النَّاسُ

ابن زريق

★ ★ ★

سَقَى اللهُ بَغْدَادَ مِنْ بَلْدَةٍ   حَوَتْ كُلَّ مَا لَذَّ لِلأَنْفُسِ

★ ★ ★

(١) الميت: ج الميتاء، وهي الأرض الليّنة. الأجراع: الأرض السهلة.

تَنَـامُ بِهَـا عَيْـنُ الغَـرِيـبِ وَلَا تَـرَى غَرِيبًا بأَرْضِ الشَّامِ يَطْمَعُ في الغَمْضِ

★ ★ ★

كـأنَّهـا الجنَـةُ التـي جَمَعَـتْ مَـا تَشْتَهـي الأَعْيُـنُ والأَنْفُسُ

كشاجم

★ ★ ★

أَنَـا أحْمِـي حلبَّـا دا رًا وأَحْمِـي مَـنْ حَمَـاهَـا
أيُّ حُسْـنٍ مـا حَـوَتْـهُ حَلْـبٌ أَوْ مـا حَـوَاهَـا
فـاخِـرِي يـا حَلَـبُ المـدْ نَ يَـزِدْ جَـاهُـكِ جـاهـا
فَلَعَمْـرِي إنْ تـكُ المـدْ نُ رخـاخًـا كُنْـتِ شـاهـا[1]

الصنوبري

★ ★ ★

صَفَـتْ دُنْيَـا دِمَشْـقَ لِسَـاكِنِيهَـا فلَسْـتَ تَـرَى بِغَيْـرِ دِمَشْـقَ دُنْيَـا

الصنوبري

★ ★ ★

قَالَ الرِّفَاقُ، وَقَـدْ هَبَّـتْ خَمَـائِلُهـا الأَرْضُ دَارٌ لَهَـا الفَيْحَـاءُ بُسْتَـانُ
جَـرَى وصَفَّـقَ يَلْقَـانـا بهـا بَـرَدَى كَمَـا تَلَقَّـاكَ دُونَ الخُلْـدِ رِضْـوانُ

شوقي

★ ★ ★

---

(١) أي هي في نظره شاه الشطرنج، والمدن الباقية رخاخ فيه.

لُبْنَـانُ والخُلْـدُ آخْتِـرَاعُ اللهِ لَـمْ يُـوسَـمْ بِـأَزْيَـنَ مِنْهُمـا مَلَكُـوتُـهُ
هُوَ ذُرْوَةٌ في الحُسْنِ غَيْـرُ مَـرُومَـةٍ وَذُرا البَـرَاعَـةِ والحِجَـى بَيْـرُوتُـهُ

شوقي

★ ★ ★

حَتَّـى بَـدَتْ حَلَـبٌ حَسْنـاءَ لَابِسَـةً ثَـوْبًـا أَغَـرَّ بِـوَشْـي اللهِ مُـزْدَانـا
تَمَثَّلَـتْ لِـيَ سُلْطَـانًـا وَقَلْعَتُهـا تَـاجًـا يَتِيـهُ بِـهِ عِـزًّا وَسُلْطَـانـا
تَحْكِـي حَـدَائِقُهـا حَفَّـتْ مَنَـازِلَهـا بَحْرًا سَحِيقَ المَدَى بالسُّفْـنِ مَلْآنـا

عادل الغضبان

★ ★ ★

القسم الثالث

متفرِّقات مَدْحِيَّة

وقال الحطيئة لِعُمَرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه، وكان حبسه لاستِعداء الزِّبْرِقان عليه:

مـاذَا تَقـولُ لأفْـراخٍ بِـذي مَـرَخٍ   زغبِ الحَواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجـرُ[1]

غَيَّبْـتَ كـاسِبَهُـمْ فـي قَعـرِ مُظْلِمَـةٍ   فاغْفِرْ، عليكَ سَلامُ اللهِ، يا عُمَـرُ[2]

أنتَ الأمينُ الذي من بَعْـدِ صـاحبِـهِ   ألْقَتْ إليكَ مقـاليـدَ النُّهـى البَشَـرُ[3]

لمْ يُـؤْثِـروكَ بهـا إذْ قـدَّمـوكَ لهـا   لكِنْ لأنفُسِهم كـانـتْ بهـا الأثَـرُ[4]

فامْنُنْ على صِبْيَةٍ بالرَّمْـلِ مَسْكَنُهُـمْ   بينَ الأباطحِ يَغْشاهُـم بهـا القِـرَرُ[5]

أهْلي، فِـداؤكَ، كـمْ بَيْنـي وبينَهُـمُ   مِن عَرْضِ دَوِّيَّةٍ يفنى بها الحجـرُ[6]

★ ★ ★

(١) ذو مرخ: اسم موضع. زغب الحواصيل: كناية عن أنّهم ما زالوا أطفالًا.

(٢) كاسبهم: من يكسب قوتهم، أي: والدهم. مظلمة: بئر مظلمة، وهي سِجْنُه.

(٣) يعني بالصاحب أبا بكر الصديق. يقال: ألقوا إليه مقاليدهم: إذا قلدوه أمورهم. النهى: جمع نهية: العقل.

(٤) لم يؤثروك بها: لم يخصوك بها، من آثره إيثارا: اختاره وفضّله. الأثَر جمع الأثْرة: الاستئثار.

(٥) منّ عليه: أنعم عليه نعمة طيبة. الأباطح: جمع الأبطح: المكان المتسع يمر به السيل، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار. يغشاهم بها القِـرَرُ: يصيبهم بها البرد. القِرر: جمع القِرَّة: البرد.

(٦) الدَّوِّيَّة: الفلاة.

من قصيدة للسيد الرضي الموسويّ يمدح بها امير المؤمنين الطائع لله

بَلَـوتُ وَجَـرَّبْـتُ ٱلْأَخِلَّاءَ مُـدَّةً ... فَـأَكْثَـرُ شَـيْءٍ فِـي الصَّـدِيـقِ مَلَالُ
وَمَـا رَاقَنِـي مِمَّـنْ أَوَدُّ تَمَلُّـقٌ ... وَلَا غَـرَّنِي مِمَّـنْ أُحِـبُّ وِصَـالُ
وَمَـا صَحْبُـكَ ٱلْأَدْنَـوْنَ إِلَّا أَبَـاعِـدٌ ... إِذَا قَـلَّ مَـالٌ أَوْ نَبَـتْ بِـكَ حَـالُ
وَمَنْ لِي بِخُلٍّ أَرْتَضِيـهِ وَلَيْـتَ لِـي ... يَمِينًـا تُعَـاطِيهَـا ٱلْـوَفَـاءَ شِمَـالُ
تَمِيلُ بِي ٱلـدُّنْيَـا إِلَـى كُـلِّ شَهْـوَةٍ ... وَأَيْـنَ مِـنَ ٱلنَّجْـمِ ٱلْبَعِيـدِ مَنَـالُ
وَتَسْلُبُنِي أَيْـدِي ٱلنَّـوَائِـبِ ثَـرْوَتِـي ... وَلِـي مِـنْ عَفَـافِـي وَٱلتَّقَنُّـعِ مَـالُ
أَنَا ٱلْمَرْءُ لَا عِرْضِي قَرِيبٌ مِنَ ٱلْعِـدَى ... وَلَا فِـيَّ لِلْبَـاغِـي عَلَـيَّ مَقَـالُ

★ ★ ★

ومن قصيدة لابن نباتة السعدي في سيف الدولة

قَدْ جُدْتَ لِي بِٱللُّهَى حَتَّى ضَجِرْتُ بِهَا ... وَكِدْتُ مِنْ ضَجَرِي أُثْنِي عَلَى ٱلْبُخْلِ
إِنْ كُنْتَ تَرْغَبُ فِي بَذْلِ ٱلنَّوَالِ لَنَـا ... فَـٱخْلُـقْ لَنَـا رَغْبَـةً أَوْ لَا فَلاَ تُنِـلِ
لَمْ يُبْـقِ جُـودُكَ لِـي شَيْئًـا أُؤَمِّلُـهُ ... تَرَكْتَنِي أَصْحَـبُ ٱلـدُّنْيـا بِلَا أَمَـلِ

★ ★ ★

وله ايضًا فيه

سُيُوفُكَ أَمْضَى فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلرَّدَى وَخَوْفُكَ أَمْضَى مِنْ سُيُوفِكَ فِي ٱلْعِدَى
فَتًى يَتَحَامَى لَذَّةَ ٱلنَّوْمِ جَفْنُهُ كَأَنَّ لَذِيذَ ٱلنَّوْمِ فِي جَفْنِهِ قَذَى
وَمَنْ سَهِرَتْ فِي ٱلْمَكْرُمَاتِ جُفُونُهُ رَعَى طَرْفُهُ فِي جَوِّهَا أَنْجُمَ ٱلْعُلَى
فَلَيْسَ يَنَامُ ٱلْقَلْبُ وَٱلْجَفْنُ سَاهِرٌ ولا تُغْمَدُ ٱلْعَيْنَانِ وَٱلْقَلْبُ مُنْتَضَى

★ ★ ★

ومن قصيدة لمحمد بن عبدالله السلامي في الصاحب

أَمَا لَكَ غَيْرُ بَأْسِكَ مِنْ عَتَادِ وَلَا غَيْرُ ٱلْعَظَائِمِ مِنْ رُكُوبِ
تَرُوضُ مَصَاعِبَ ٱلْأَيَّامِ قَهْرًا وَتَحْمِلُهَا عَلَى عُودٍ صَلِيبِ
وَتَبْذُلُ دُونَ تَاجِ ٱلْمُلْكِ نَفْسًا مُتَيَّمَةً بِتَنْفِيسِ ٱلْكُرُوبِ
وَجَرَّبَتِ ٱلْمُلُوكُ فَمَا أَصَابَتْ لِدَاءِ ٱلْمُلْكِ غَيْرَكَ مِنْ طَبِيبِ

★ ★ ★

ولأبي الفتح البستي في محمد بن حامد

بِنَفْسِي أَخٌ نَفْسُهُ أُمَّةٌ وَتَدْبِيرُهُ فِي ٱلْوَرَى فَيْلَقُ
أَخٌ بَابُ إِحْسَانِهِ مُطْلَقٌ وَبَابُ إِسَاءَتِهِ مُغْلَقُ

مُحَمَّدُ أَنْتَ قِرَى نَاظِرِي   فَكَيْفَ إِذَا غِبْتَ لَا أَقْلَقُ
رَهَنْتُكَ قَلْبِي وَحُكْمُ ٱلْقُلُوبِ   إِذَا رُهِنَتْ أَنَّهَا تُغْلَقُ

* * *

ومن قصيدة لأبي الحسن عمر النوقاني في الأمير خلف

لَكَ ٱلدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا وَلٰكِنْ   تُلَاحِظُهَا بِعَيْنَيْكَ ٱحْتِقَارَا
تَكَبَّرَ ذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى بَنِيهِ   فَعِشْ حَتَّى تُعَلِّمَهُ ٱلصَّغَارَا
وَصَارَ صِغَارُهُمْ فِيهِ كِبَارًا   فَدُمْ حَتَّى تَرُدَّهُمُ صِغَارَا
خَدَمْتُ لَكَ ٱلْمُلُوكَ أَرُوضُ نَفْسِي   لِآمَنَ تَحْتَ خِدْمَتِكَ ٱلْعِثَارَا
وَلَوْ كَانَتْ لَنَا ٱلدُّنْيَا جَعَلْنَا   لَكَ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا نِثَارَا

* * *

ومن قصيدة لابن مطروح في الوزير عماد الدين

وَهَبَّتْ عَلَيْنَا نَفْحَةٌ عَنْبَرِيَّةٌ   كَعَرْفِ عِمَادِ الدِّينِ حِينَ تُقَابِلُهْ
فَقُمْتُ مِنَ ٱلْإِجْلَالِ أُنْشِدُ مَدْحَهُ   وَقَدْ سَبَقَتْنِي قَبْلَ ذَاكَ فَوَاضِلُهْ
تَكَافَأَ فِي ٱلْإِحْسَانِ شِعْرِي وَمَدْحُهُ   وَلٰكِنْ بِخَصْلِ ٱلسَّبْقِ فَازَتْ أَنَامِلُهْ

* * *

ومن قصيدة لحلفة بن حليفة الاقطع مولى قيس بن ثعلبة يمدح قومه

عِذَابٌ عَلَى ٱلْأَفْوَاهِ مَا لَمْ يَذُقْهُمُ ... عَدُوٌّ وَبِٱلْأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَحْلُو
عَلَيْهِمْ وَقَارُ ٱلْحِلْمِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... وَلِيدُهُمُ مِنْ أَجْلِ هَيْبَتِهِ كَهْلُ
إِذَا ٱسْتُجْهِلُوا لَمْ يَعْزُبِ ٱلْحِلْمُ عَنْهُمُ ... وَإِنْ آثَرُوا أَنْ يَجْهَلُوا عَظُمَ ٱلْجَهْلُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْقَتْلَ غَالٍ إِذا رَضُوا ... وَإِنْ غَضِبُوا فِي مَوْطِنٍ رَخُصَ ٱلْقَتْلُ
إِذَا طَلَبُوا ذَحْلًا[1] فَلَا ٱلذَّحْلُ فَائِتٌ ... وَإِنْ ظَلَمُوا أَكْفَاءَهُمْ بَطَلَ ٱلذَّحْلُ

* * *

وقالت ليلى الأخيلية في الحجَّاج

أَحَجَّاجُ إِنَّ اللهَ أَعْطَاكَ غَايَةً ... يُقَصِّرُ عَنْهَا مَنْ أَرَادَ مَدَاهَا
إِذَا وَرَدَ ٱلْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً ... تَتَبَّعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ ٱلدَّاءِ ٱلْعَيَاءِ ٱلَّذِي بِهَا ... غُلَامٌ إِذَا هَزَّ ٱلْقَنَاةَ ثَنَاهَا
إِذَا سَمِعَ ٱلْحَجَّاجُ صَوْتَ كَتِيبَةٍ ... أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ ٱلنُّزُولِ قِرَاهَا

* * *

(١) ثأرًا.

وقال خالد بن جعفر الكلابي يمدح النعمان بن المنذر

أَخْلَاقُ مَجْدِكَ جَلَّتْ[1] مَا لَهَا خَطَرٌ[2] فِي ٱلْبَأْسِ وَٱلْجُودِ بَيْنَ ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ
مُتَـوَّجٌ بِـٱلْمَعَـالِـي فَـوْقَ مَفْـرِقِــهِ وَفِي ٱلْوَغَى ضَيْغَمٌ فِي صُورَةِ ٱلْقَمَـرِ
إِذَا دَجَـا ٱلْخَطْـبُ جَلَّاهُ بِصَـارِمِــهِ كَمَا يُجَلَّى زَمَانُ ٱلْمَحْـلِ بِـٱلْمَطَـرِ

★ ★ ★

وقال أبو الحسن احمد الكاتب يمدح عبيدالله بن سليمان

إِذَا أَبُـو قَـاسِـمٍ جَـادَتْ لَنَـا يَــدُهُ لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَـرُ
وَإِنْ أَضَـاءَتْ لَنَـا أَنْــوَارُ عِــزَّتِــهِ تَضَـاءَلَ ٱلْأَنْـوَرَانِ ٱلشمْسُ وَٱلْقَمَـرُ
يَنَالُ بِـٱلظَّـنِّ مَـا يَعْيَـا ٱلْعِيَـانُ بِـهِ وَٱلشَّـاهِـدَانِ عَلَيْـهِ ٱلْعَيْـنُ وَٱلْأَثَـرُ

★ ★ ★

وقال آخر في قوم كرام

إِذَا رَكِبُوا زَادُوا ٱلْمَـوَاكِـبَ بَهْجَـةً وَإِنْ جَلَسُوا كَانُوا صُدُورَ ٱلْمَجَـالِسِ

★ ★ ★

---

(١) جلّت : سبقت.
(٢) الخطر : المثل والنظير.

وقال أبو نواس في مدح الخصيب

إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ ٱلْخَصِيبِ رِكَابُنَا　　فَأَيَّ فَتًى بَعْدَ ٱلْخَصِيبِ تَزُورُ
فَمَا فَاتَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ　　وَلٰكِنْ يَسِيرُ ٱلْجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ

★ ★ ★

وقال آخر في كريم

إِنَّ ٱلْهِبَاتِ ٱلَّتِي جَادَ ٱلْكِرَامُ بِهَا　　مَطْرُوقَةٌ وَنَدَى كَفَّيْكَ مُبْتَكَرُ
مَا زِلْتَ تَسْبِقُ حَتَّى قَالَ حَاسِدُكُمْ　　لَهُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْعَلْيَاءِ مُخْتَصَرُ

★ ★ ★

وقال مسلم بن الوليد يمدح يزيد بن يزيد

تَلْقَى ٱلْمَنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتِهَا　　كَٱلسَّيْلِ يَقْذِفُ جُلْمُودًا بِجُلْمُودِ
تَجُودُ بِٱلنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ ٱلضَّنِينُ بِهَا　　وَٱلْجُودُ بِٱلنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ ٱلْجُودِ

★ ★ ★

وقال الغانمي في كريم

سَلَكَتْ طَرِيقَةَ سَيْبِكَ ٱلْأَنْوَاءُ　　وَتَبَسَّمَتْ عَنْ سَيْفِكَ ٱلْعَلْيَاءُ
فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ لِمَجْدِكَ آيَةٌ　　شَهِدَتْ بِصِحَّتِهَا لَكَ ٱلْأَعْدَاءُ

★ ★ ★

وقال الأرجاني يمدح وليّ الدولة

عَـدَتْـكَ ٱلْحَـادِثَـاتُ إِلَـى عِـدَاكَـا ... فَمَـا لِلنَّـاسِ مَعْنًـى مَـا عَـدَاكَـا
فَـأَنْـتَ سَنَنْـتَ لِلنَّـاسِ ٱلْمَعَـالِـي ... وَإِنْ لَـمْ يَبْلُغُـوا فِيهَـا مَـدَاكَـا
خُلِقْـتَ مِـنَ ٱلْعَلَا وَٱلْمَجْـدِ حَتَّـى ... تَضَمَّنَـتِ ٱلْفَضَـائِـلَ بُـرْدَتَـاكَـا
فَلَـوْ كَـانَ ٱلْعَلَا وَٱلْمَجْـدُ شَخْصًـا ... يَـرَاهُ ٱلنَّـاظِـرُونَ لَكُنْـتَ ذَاكَـا
وَنَسْمَـعُ مِـنْ كِـرَامِ ٱلنَّـاسِ ذِكْـرًا ... وَنَنْظُـرُ مَـا نَـرَى أَحَـدًا سِـوَاكَـا
فَمَا ٱكْتَحَلَـتْ بِنُـورِ ٱلسَّعْـدِ يَـوْمًـا ... مِـنَ ٱلـدُّنْيَـا سِـوَى عَيْـنٍ تَـرَاكَـا

* * *

وقال غيره في رجل فريد

عَقِـمَ ٱلنِّسَـاءُ فَلَا يَلِـدْنَ نَظِيـرَهُ ... فَنَظِيـرُهُ فِـي ٱلْعَـالَمِيـنَ قَلِيـلُ
هَيْـهَـاتِ لَا يَـأْتِـي ٱلـزَّمَـانُ بِمِثْلِـهِ ... إِنَّ ٱلـزَّمَـانَ بِمِثْلِـهِ لَبَخِيـلُ

* * *

من قصيدة لأبي بكر الخوارزمي في عضد الدولة

غَرِيبٌ عَلَـى ٱلْأَيَّـامِ وِجْـدَانُ مِثْلِـهِ ... وَأَغْـرَبُ مِنْـهُ بَعْـدَ رُؤْيَتِـهِ ٱلْفَقْـرُ
فَلَا حُـرَّ إِلَّا وَهْـوَ عَبْـدٌ لِجُـودِهِ ... وَلَا عَبْدَ إِلَّا وَهْوَ فِـي عَـدْلِـهِ حُـرُّ
عَجِبْتُ لَـهُ لَـمْ يَلْبَسِ ٱلْكِبْـرَ حُلَّـةً ... وَفِينَا لِأَنْ جُـزْنَـا عَلَـى بَـابِـهِ كِبْـرُ

ومن قصيدة لعبدالله الرقاشي في
ابي سعيد احمد بن شبيب

إنَّ الفتـوح عَلَـى يَـدَيْـكَ تَتَـابَعَـتْ   كَتَتَـابُـعِ ٱلْأَنْـوَاءِ فِـي نِيسَـانِ
خَفَقَـتْ بُنُـودُكَ حَـوْلَهُـمْ فَكَـأَنَّمَـا   طَـارَتْ قُلُـوبُهُـمُ مِـنَ ٱلْخَفَقَـانِ
وَلَئِنْ حُسِـدْتَ فَلَسْـتَ أَوَّلَ سَـابِـقٍ   يَـرْمِيـهِ بِـٱلْبَغْضَـاءِ ٱلْأَمُ وَانِـي
إِنَّ ٱلْكَـرِيـمَ مُحَسَّـدٌ فِـي قَـوْمِـهِ   وَتَـرَى ٱلْحَسُـودَ مَطِيَّـةَ ٱلْأَشْجَـانِ

★ ★ ★

وللقاضي التنوخي علي بن محمد في مدح احدهم

رِضَـاكَ شَبَـابٌ لَا يَليـهِ مَشيـبُ   وَسُخْطُـكَ دَاءٌ لَيْسَ مِنْـهُ طَبِيـبُ
كَأَنَّكَ مِنْ كُـلِّ ٱلنُّفُـوسِ مُـرَكَّـبٌ   فَأَنْـتَ إِلَـى كُـلِّ ٱلنُّفُـوسِ حَبِيـبُ

★ ★ ★

وقال الأرجاني يمدح بعضهم

وَقَضَى لَـهُ بِـٱلْفَضْـلِ أَهْـلُ زَمَـانِـهِ   بِشَهَـادَةِ ٱلْأَعْـدَاءِ وَٱلْحُسَّـادِ
وَسَمِعْتُ أَخْبَـارَ ٱلنَّـدَى عَـنْ كَفِّـهِ   فَعَـرَفْـتُ فِيهَـا صِحَّـةَ ٱلْإِسْنَـادِ
مِنْ مَعْشَرٍ بِيـضِ ٱلْـوُجُـوهِ أَكَـارِمٍ   يَوْمَ ٱلسَّمَاحِ وَفِـي ٱلْـوَغَـى أَنْجَـادِ

رَضَعُوا لِبَانَ ٱلْمَجْدِ فِي حِجْرِ ٱلْعُلَى ... فَعَلَوْا عَلَى ٱلْأَكْفَاءِ وَٱلْأَنْدَادِ
قَوْمٌ إِذَا سَفَرُوا حَسِبْتَ وُجُوهَهُمْ ... لِلنَّاظِرِينَ أَهِلَّةَ ٱلْأَعْيَادِ

★ ★ ★

ومن قصيدة لعبد السلام بن الحسين المأموني في أبي الحسن المزني

طَبَعَتْ مُزَيْنَةُ مِنْهُ[1] عَضْبًا مَا لَهُ ... فِي غَيْرِ هَامَاتِ ٱلْأُسُودِ قَرَارُ
آرَاؤُهُ بِيضُ ٱلظُّبَى وَحَدِيثُهُ ... رَوْضُ ٱلرُّبَى وَيَمِينُهُ تَيَّارُ
ضُمَّتْ عَلَى ٱلدُّنْيَا بَدَائِعُ لَفْظِهِ ... فَكَأَنَّهَا زَنْدٌ وَهُنَّ سِوَارُ
وَإِذَا ٱلْعُلُومُ ٱسْتَبْهَمَتْ طُرُقَاتُهَا ... فَذَوُوهُ أَعْلَامٌ لَهَا وَمَنَارُ
عَزَمَاتُهُمْ قُضُبٌ وَفَيْضُ أَكُفِّهِمْ ... سُحُبٌ وَبِيضُ وُجُوهِهِمْ أَقْمَارُ
يَا مَنْ إِذَا أَطْرَى ٱلْقَبَائِلَ شَاعِرٌ ... صَلَّتْ عَلَى آيَاتِهِ ٱلْأَشْعَارُ
فَٱرْحَمْ بِمَنْكِبِكَ ٱلسَّمَاءَ أَمَا تَرَى ... لِسِوَاكَ فِي خِطَطِ ٱلنُّجُومِ جِوَارُ
وَٱلْأَرْضُ مُلْكُكَ وَٱلْوَرَى لَكَ غِلْمَةٌ ... وَٱلدَّهْرُ عَبْدُكَ وَٱلْعُلَى لَكَ دَارُ

★ ★ ★

(١) مزينة: قبيلة الممدوح والضمير في منه عائد إليه.

للقاضي أبي محمد بن عطية

كَمْ صَدْمَةٍ لَكَ فِيهِم مَشْهُورَةٍ غَصَّ ٱلعِرَاقُ بِذِكْرِها وٱلشَّامُ
في مَأْزِقٍ فِيهِ ٱلْأَسِنَّةُ وٱلظُّبَى بَرْقٌ ونَقْعُ ٱلعادِياتِ غَمَامُ
وٱلضَّرْبُ قد صَبَغَ ٱلنُّصُولَ كأَنَّما يَجْرِي على مآءِ ٱلحَدِيدِ ضِرامُ
وٱلطَّعْنُ يَبْتَعِثُ ٱلنَّجِيعَ كأَنَّما تَنْشَقُّ عَنْ زَهْرِ ٱلشَّقِيقِ كِمامُ

★ ★ ★

لابن الرومي

آراؤكم وَوُجُوهُكُمْ وسُيُوفُكُمْ في ٱلحادِثاتِ إِذَا دَجَوْنَ نُجومُ
مِنْها مَعالِمُ لِلهُدَى ومَصابِحٌ تَجْلُو ٱلدُّجَى وٱلأُخْرَياتُ رُجُومُ

★ ★ ★

لآخر

نَصَبُوا بِقارِعَةِ ٱلطَّرِيقِ خِيامَهُمْ يَتَسابَقُونَ إِلى قِرَى ٱلضِّيفانِ
ويَكادُ مَوقِدُهُمْ يَجُودُ بِنَفْسِهِ حُبَّ ٱلقِرَى حَطَبًا على ٱلنِّيرانِ

★ ★ ★

لأَبي الشيص الخزاعي

عَشِقَ ٱلمَكارِمَ فَهْوَ مُشْتَغِلٌ بِها   وَٱلمَكْرُماتُ قَليلَةُ ٱلعُشَّاقِ
وأقامَ سُوْقاً لِلثَّناءِ ولَمْ تَكُنْ   سُوقُ ٱلثَّناءِ تُعَدُّ في ٱلْأَسواقِ
بَثَّ ٱلصَّنائِعَ في ٱلبِلادِ فأصْبَحَتْ   تُجْبَى إلَيْهِ مَحامِدُ ٱلآفاقِ

★ ★ ★

لأبي حوثة

قَوْمٌ إذَا ٱقْتَحَمُوا ٱلعَجاجَ رَأَيتَهُمْ   أُسُدًا وَخِلْتَ وُجُوهَهُمْ أَقْمارا
لا يَعْدِلُونَ بِرِفْدِهِمْ عن سائِلٍ   عَدَلَ ٱلزَّمانُ عَلَيْهِمِ أَوْ جَارا
وَإذَا ٱلصَّرِيخُ دَعاهُمُ لِمُلِمَّةٍ   بَذَلُوا ٱلنُّفُوسَ وفارَقُوا الأعمارا
وَاذا زِنادُ ٱلحَرْبِ أُخْمِدَ نارُها   قَدَحُوا بِأَطْرافِ ٱلأَسِنَّةِ نارا

★ ★ ★

لمروان بن ابي حفصة في معن بن زائدة

تَجَنَّبَ لا في القَوْلِ حَتَّى كأَنَّهُ   حَرامٌ عليهِ قَوْلُ لا حِينَ يُسْأَلُ
تَشابَهَ يَوْماهُ علينا فأشْكَلا   فَلَمْ نَكُ نَدْرِي أيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ
أَيَوْمُ نَداهُ ٱلغَمْرِ أَمْ يَوْمُ بأسِهِ   وما مِنهُما الّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

بَهالِيلُ في ٱلإسلامِ سادُوا ولمْ يَكُنْ كـأَوَّلِهِمْ في ٱلجاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلقَوْمُ إنْ قالُوا أَصابُوا وإنْ دُعُوا أجابُوا وَإنْ أعطوا أَطابُوا وَأَجْزَلُوا
وما يَسْتَطِيعُ ٱلفاعِلُونَ فَعالَهُمْ وَإنْ أَحسَنُوا في ٱلنَّائِباتِ وأَجمَلُوا

★ ★ ★

لمحمد بن هانىء في يحيى بن عليّ بن غلبون

وَكَمْ جَحْفَلٍ مَجْرٍ قَرَعْتَ صَفَاتَهُ بِصاعِقَةٍ تَرْفَضُّ مِنها ٱلْجَماجِمُ
أَتَتْكَ بِها ٱلآسادُ تَحْتَ زَئِيرِها فَطارَتْ بِهِ عن جانِبَيْكَ ٱلقَشاعِمُ
أَتَوْكَ فَما خَرُّوا إلى ٱلبِيضِ سُجَّدًا وَلٰكِنَّما كَانَتْ تَخِرُّ ٱلْجَماجِمُ
ولو حارَبَتْكَ ٱلشَّمْسُ دُونَ لِقائِهِمْ لأعجَلَها جُنْدٌ مِنَ اللهِ هازِمُ
سَبَقْتَ ٱلمَنايا واقِعاً بِنُفُوسِهِمْ كما وَقَعَتْ قَبْلَ ٱلخَوافي ٱلقَوادِمُ
تَقُودُ ٱلكُماةَ ٱلمُعْلَمِينَ إلى ٱلوَغَى لَهُمْ فوقَ أَصواتِ ٱلحَدِيدِ هَماهِمُ
غزَوْا في ٱلدُّرُوعِ ٱلسابِغاتِ كَأَنَّما تُدِيرُ عُيُوناً فَوْقَهُنَّ ٱلأَراقِمُ
فَلَيْسَ لَهُمْ إلَّا ٱلدِّماءَ مَشارِبٌ وَلَيْسَ لَهُمْ إلَّا ٱلنُّفوسَ مَطاعِمُ
يوَدُّونَ لَوْصِيغَتْ لَهُمْ من حِفاظِهِمْ وإقدامِهِمْ تِلْكَ ٱلسُّيُوفُ ٱلصَّوارِمُ
ولو طَعَنَتْ قَبْلَ ٱلرِّماحِ قُلُوبُهُمْ ولو سَبَقَتْ قَبْلَ ٱلأَكُفِّ ٱلمَعاصِمُ

★ ★ ★

قال النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث الأصغر:

إذا ما غَزَوْا بالجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ[1]
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[2]
تُوُرِّثْنَ مِنْ أيَّامِ يَوْمِ حَلِيمَةٍ إلَى اليَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كلَّ التَّجَارِبِ[3]
لَهُمْ شِيمَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللهُ غيرَهُمْ مِنَ الجُودِ والأحْلامُ غَيْرُ عَوَازِبِ[4]
مَحَلَّتُهُمْ ذَاتُ الإلٰهِ وَدِينُهُمْ قَوِيمٌ فَمَا يَرْجَوْنَ غَيْرَ العَوَاقِبِ[5]
رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهُمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ[6]

★ ★ ★

وقال زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان أحد الذين سعوا في إنهاء حرب داحس والغبراء:

بَلِ اذْكُرَنْ خَيْرَ قَيْسٍ كلِّها حَسَبًا وَخَيْرَهَا نَائِلًا وَخَيْرَهَا خُلُقَا
وَذَاكَ أحْزَمُهُمْ رَأْيًا إذا نَبَأٌ مِنَ الحَوَادِثِ آبَ النَّاسَ أو طَرَقَا

---

(١) العصائب: الجماعات.
(٢) الفلول: الثلوم - قراع الكتائب: قتال الجيوش.
(٣) يوم حليمة: أحد أيام العرب التي انتصروا فيها على أعدائهم.
(٤) الشيمة: الميزة الحسنة - غير عوازب: لا تتغيّر.
(٥) محلّتهم: أي مسكنهم. ذات الإله: أي بيت المقدس، وهي الأرض المقدّسة ومنازل الأنبياء. لا يرجون غير العواقب: أي لا يخافون، وقيل: لا يطلبون إلّا عواقب أمورهم، وحسن الجزاء عليها.
(٦) رقاق النعال: أي منعّمون. طيّب حجزاتهم: أي أعفّاء الفروج. يوم السباسب: أي يوم الشعانين.

فَضْلُ الجَوَادِ عَلَى الخَيْلِ البطـاءِ فَلَا ... يُعْطِي بِذَلِـكَ مَمْنُـونًـا وَلَا نَـزِقـا[1]
قَدْ جَعَلَ المُبْتَغُونَ الخَيْرَ فـي هَـرَمٍ ... والسـائِلُـونَ إلـى أبْـوَابِـهِ طُـرُقَـا
مَنْ يَلْـقَ يَـوْمًـا عَلَـى علّاتـه هَـرِمًـا ... يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْـهُ والنَّـدَى خُلُقـا[2]
لَوْ نَـالَ حَـيٌّ مِـنَ الدُّنْيَـا بِمَكْـرُمَـةٍ ... أفْـقَ السَّمَـاءِ لَنَـالَـتْ كَفُّـهُ الأُفُقَـا

★ ★ ★

قال زهير بن أبي سلمى في مدح سنان والد هرم:

لَوْ كَـانَ يَخْلُـدُ أقْـوامٌ بِمَجْـدِهِـمِ ... أوْ مَـا تَقَـدَّمَ مِـنْ أيَّـامِهِمْ خَلَـدُوا
أوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ ... قَـوْمٌ بـأوَّلِهِـمْ أو مَجْـدِهِـمْ قَعَـدُوا
قَـوْمٌ أبُـوهُـمْ سِنَـانٌ حيـنَ تَنْسِبُهُـمْ ... طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأوْلَادِ مَـا وَلَـدُوا
إنْسٌ إذَا أمِنُـوا جِـنٌّ إذا غَضِبُـوا ... مُـرَزَّؤُونَ بَهـالِيـلٌ إذَا جُهِـدُوا[3]
مُحَسَّدُونَ عَلَى مَـا كَـانَ مِـنْ نِعَـمٍ ... لا يَنْـزِعُ اللهُ مِنْهُـمْ مَـالَـه حُسِـدُوا
لَـوْ يُـوزَنُـونَ عِيَـارًا أَوْ مُكَـايَلَـةً ... مَالُوا بِرَضْوَى وَلَمْ يَعْدِلْهُـمُ أحَـدُ[4]

قال طخيم الأسدي في مدح قوم من أهل الحيرة:

وإنِّـي وَإنْ كَـانُـوا نَصَـارَى أُحِبُّهُـمْ ... وَيَـرْتَـاحُ قَلْبِـي نَحْـوَهُـمْ وَيَتُـوقُ

★ ★ ★

(١) النزق: البطر. والمعنى: أنّ فضل هرم على الرجال كفضل الجواد على الخيل البطاء.
(٢) على علّاته: أي في أسوأ حالاته.
(٣) بهاليل: أسياد - جهدوا: تعبوا.
(٤) رضوى: اسم جبل.

وقال عدي بن زيد بن حمار في مدح بني شيبان:

إنّي حَمَدْتُ بَنِي شَيْبَانَ إذْ خَمَدَتْ نِيرانُ قَوْمِي وَفِيهِمْ شُبّتِ النَّارُ[1]
ومِنْ تَكَرُّمِهِمْ في المحلِ أنَّهُمُ لا يَعْلَمُ الجَارُ فِيهِمْ أنَّهُ الجَارُ[2]
حَتَّى يَكُونَ عَزِيزًا مِنْ نُفُوسِهِم أوْ أنْ يَبِينَ جَمِيعًا وَهْوَ مُخْتَارُ[3]
كَأنَّهُ صَدَعٌ في رَأْسِ شَاهِقَةٍ مِنْ دُونِهِ لِعِتَاقِ الطَّيْرِ أوْكَارُ[4]

★ ★ ★

قال أحدهم في مدح بني المهلّب:

نَزَلْتُ عَلَى آلِ المُهَلَّبِ شَاتِيًا غَرِيبًا عَنِ الأوْطَانِ في زمنٍ مَحْلِ
فَمَا زَالَ بِي إكْرَامُهُمَ وَاقْتِفَاؤُهُمْ وإلْطَافُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمُ أهْلِي[5]

★ ★ ★

قال أبو البرج القاسم بن حنبل المرّي في مدح زفر بن أبي هاشم بن مسعود بن سنان:

فَلَوْ أنَّ السَّمَاءَ دَنَتْ لمجدٍ ومَكْرُمَةٍ دَنَتْ لَكُمُ السَّمَاءُ

★ ★ ★

---

(١) خمدت: أطفئت - شبّت: أشعلت.
(٢) المحل: القحط والجدب.
(٣) يبين: يبتعد.
(٤) الصدع: صفة للوعل. عتاق الطير: أقواها.
(٥) اقتفاؤهم: أي تتبع أثر ما يحتاج إليه.

وقال الحطيئة في مدح قوم:

يَسُوسُونَ أحْلَامًا بَعِيدًا أَنَاتُهَا ... وإنْ غَضِبُوا جَاءَ الحَفِيظَةُ وَالجِدُّ[1]
أقِلُّوا عَلَيْهِمْ لا أَبًا لِأَبِيكُمُ ... مِنَ اللَّومِ أو سُدُّوا المَكَانَ الذي سَدُّوا
أُولئِكَ قَوْمٌ إنْ بَنَوا أَحْسَنُوا البِنَا ... وإنْ وَعَدُوا أوفَوْا وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وإنْ كَانَتِ النَّعْمَاءُ فيهِمْ جَزَوْا بِها ... وإنْ أَنْعَمُوا لا كدَّرُوها وَلَا كَدُّوا
وإنْ قَالَ مَوْلاهُمْ على جَلِّ حَادِثٍ ... مِنَ الدَّهْرِ رُدُّوا فَضْلَ أحْلامِكُمْ رَدّوا
وَيَعْذُلُنِي أَبْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيهِمُ ... وَمَا قُلْتُ إلّا بالَّذِي عَلِمَتْ سَعْدُ

★ ★ ★

وقال الحطيئة في مدح بني أنف الناقة[2]:

قَوْمٌ هُمُ الأَنْفُ والأَذْنَابُ غَيْرُهُم ... وَمَنْ يُسَوِّي بأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا

★ ★ ★

وقالت امرأة من إياد في مدح ابن عمرو:

الخَيْلُ تَعْلَمُ يَوْمَ الرَّوْعِ إنْ هُزِمَتْ ... أَنَّ ابنَ عمروٍ لَدَى الهَيْجاءِ يَحْمِيهَا[3]

---

(١) الأحلام: العقول. الحفيظة: الحزم.
(٢) أنف الناقة هو جعفر بن قريع بن عوف بن زيد مناة بن تميم.
(٣) الروع: الفزع والخوف. الهيجاء: الحرب.

لَمْ يُبْدِ فُحْشًا وَلَمْ يُهْدِدْ لِمَعْظَمَةٍ وَكُلُّ مَكْرُمَةٍ يُلْقَى يُسَامِيهَا[1]
المُسْتَشَارُ لأمْرِ القَوْمِ يَحْزُبُهُمْ إذا الهَنَاتُ أهَمَّ القومَ ما فيها[2]
لا يَرْهَبُ الجارُ مِنْهُ غَدْرَةً أبَدًا وإنْ ألَمَّتْ أمُورٌ فَهْوَ كافِيهَا

★ ★ ★

وقال ابن دارة في مدح عدي بن حاتم الطائي:

تَحِنُّ قَلُوصِي في مَعَدٍّ وإنَّمَا تُلاقِي الرَّبِيعَ في دِيَارِ بَنِي ثُعَلْ[3]
وَأبْقَى اللَّيَالِي مِنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ حُسَامًا كَنَصْلِ السَّيْفِ سُلَّ مِنَ الخَلَلْ
أبُوكَ جَوَادٌ لا يُشَقُّ غُبَارُهُ وَأنْتَ جَوَادٌ لَيْسَ تَغْدُرُ بالعَزَلْ
فإنْ تَفْعَلُوا شَرًّا فَمِثْلُكُمُ اتَّقَى وإنْ تَفْعَلُوا خَيْرًا فَمِثْلُكُمْ فَعَلْ

★ ★ ★

وقال حسّان بن ثابت في مدح الأنصار:

قَوْمٌ إذا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ أوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ في أشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا[4]
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ إنّ الخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا البِدَعُ[5]

---

(١) يهدد: يبادر. المعظمة: الشيء العظيم. يساميها: يباريها.
(٢) الهنات: الأمور الخسيسة. يحزبهم: يضيّق عليهم.
(٣) القلوص: الناقة. معدّ: العرب.
(٤) حاولوا: راموا ـ الأشياع: الأنصار والأتباع.
(٥) السجيّة: الخلق. البدع: الشيء المستحدث.

لا يَرْقَعُ النَّـاسُ مَـا أَوْهَـتْ أَكُفُّهُـمُ   عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلَا يُوهُـونَ مـا رَقَعُـوا
إنْ كَانَ في النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْـدَهُـمُ   فَكُـلُّ سَبْـقٍ لِأَدْنَـى سَبْقِهِـمْ تَبَـعُ
يَسْمُونَ لِلْحَرْب تَبْدُو وَهْيَ كَـالِحَـةٌ   إذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أظْفَارِهـا خَشَعُـوا(١)
لا يَفْـرَحُـونَ إذا نَـالُـوا عَـدُوَّهُـمُ   وإنْ أصِيبُوا فَلَا خَـورٌ وَلَا جَـزَعُ(٢)
كَأَنَّهُمْ فـي الوَغَـى والمَـوْتُ مُكْتَنِعٌ   أسُودُ بِيشَـةٍ فـي أرْسَـاغِهـا فَـدَعُ(٣)

★ ★ ★

وقال أحدهم:

فَتًى مِثْلُ صَفْوِ المَاءِ لَيْسَ بِبَـاخِـلٍ   عَلَيـكَ وَلَا مُهْـدٍ مَلَامًـا لِبَـاخِـلِ
وَلَا قَـائِـلٍ عَـوْرَاءَ تُـؤْذِي رَفِيقَـهُ   وَلَا رافِـعٍ رَأْسًـا بِعَـوْرَاءِ قَـائِـلِ(٤)
وَلَا مُسْلِـمٍ مَـوْلًـى لِأَمْـرٍ يُصِيبُـهُ   وَلَا خَـالِـطٍ حَقًّـا مُصِيبًـا بِبَـاطِـلِ
وَلَا رَافِـعٍ أُحْـدُوثَـةَ السُّـوءِ مُعْجَبًـا   بِها بَيْنَ أَيْدي المَجْلِس المُتَقَـابِـلِ
تَرَى أَهْلَهُ في نِعْمَـةٍ وَهْـوَ شَـاحِـبٌ   طَوَى البَطْنِ مِخْمَاصِ الضُّحَى والأَصَائِلِ(٦)

★ ★ ★

---

(١) كَالحة: عابسة. الزعانف: ج الزعنفة، وهو من الرجال القصير. خشعوا: فزعوا.
(٢) نالوا عدوّهم: انتصروا عليه. اصيبوا: هزموا. خور: ضعف.
(٣) الوغى: الحرب. مكتنع: حاضر. بيشة: موضع تكثر فيه الأسود. الفدع: الاعوجاج.
(٤) العوراء من القول: الفاحش.
(٥) الأحدوثة: ما يتحدّث به.
(٦) طوى البطن: ضامره. مخماص: من المخمصة أي الجوع.

قال عمرو بن كميل في مدح عمرو بن ذكوان:

يَسُرُّكَ مَظْلُومًا وَيُرْضِيكَ ظَالِمًا　　　وَكُلُّ الَّذِي حمّلْتَهُ فَهْوَ حَامِلُهْ
أَخُو الجِدّ إنْ جَدَّ الرِّجَالُ وَشَمَّرُوا　　　وَذُو بَاطِلٍ إنْ شِئْتَ أَلْهَاكَ بَاطِلُهْ

* * *

وقال أحدهم في مدح آل المهلّب:

آلُ المُهَلَّبِ قَوْمٌ خُوِّلُوا شَرَفًا　　　مَا نَالَهُ عَرَبِيٌّ لَا وَلَا كَادَا[1]
لَوْ قِيلَ لِلْمَجْدِ حِدْ عَنْهُمْ وَخَالِهِم　　　بِمَا آحْتَكَمْتَ مِنَ الدُّنْيَا لَمَا حَادَا[2]
إنَّ المَكَارِمَ أَرْوَاحٌ يَكُونُ لَهَا　　　آلُ المُهَلَّبِ دُونَ النَّاسِ أجْسَادَا

* * *

وقال زياد الأعجم في مدح عبدالله بن الحشرج:

إنّ السَّمَاحَةَ والمُرُوءَةَ والنَّدَى　　　في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى آبْنِ الحَشْرَجِ
مَلِكٌ أَغَرُّ مُتَوَّجٌ ذُو نَائِلٍ　　　لِلْمُعْتَفِينَ يمينُه لَمْ تَشْنَجِ[3]

---

(١) خُوّلوا: ملّكوا.
(٢) خالهم: تخلَّ عنهم.
(٣) النائل: العطيّة. المعتفون: المحتاجون. تشنج: تتقبض.

يا خَيْرَ مَنْ صَعَدَ المَنَابِرَ بالتُّقى بَعْدَ النَّبيِّ المُصْطَفى المُتَحَرِّجِ [١]
لَمّا أتَيْتُكَ رَاجِيًا لِنَوَالِكُمْ ألفَيْتُ بَابَ نَوَالِكُمْ لَنْ يُرْتَجِ [٢]

★ ★ ★

وقال ابن عقيل في مدح بني دارم:

بَني دَارِمٍ إنْ يَفْنَ عُمْرِي فَقَدْ مَضَى حَيَاتي لَكُمْ مِنّي ثَنَاءٌ مُخَلَّدُ
بَدَأْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ فَأَثْنَيْتُ جَاهِدًا وإنْ عُدْتُمُ أثْنَيْتُ وَالعَوْدُ أحْمَدُ

★ ★ ★

وقال محمد بن عبدالله بن مسلم المعروف بابن المولى في مدح يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب والي مصر من قبل أبي جعفر المنصور:

وإذا تُبَاعُ كَرِيمَةٌ أوْ تُشْتَرَى فَسِوَاكَ بَائِعُهَا وأَنْتَ المُشْتَرِي [٣]
وإذَا تَوَعَّرَتِ المَسَالِكُ لَمْ يَكُنْ مِنْها السَّبِيلُ إلى نَدَاكَ بِأَوْعَرِ [٤]
وإذا صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَتْمَمْتَهَا بِيَدَيْنِ لَيْسَ نَدَاهُمَا بِمُكَدَّرِ [٥]
وإذَا هَمَمْتَ لِمُعْتَفِيكَ بِنَائِلٍ قَالَ النَّدى فأطَعْتَهُ لَكَ أكْثِرِ
يا وَاحِدَ العُرْبِ الَّذِي مَا إنْ لَهُمْ مِنْ مَذْهَبٍ عَنْهُ وَلَا مِن مُقْصِرِ

★ ★ ★

(١) المتحرّج: المجانب للإثم.
(٢) النوال: العطاء. يرتج: يغلق.
(٣) الكريمة: الفعل الحميد.
(٤) المسالك: الطرق، توعّرت: صارت وعرة. نداك: عطاؤك وكرمك.
(٥) الصنيعة: هنا الفعل الحميد. المكدّر: فيه منّة.

وقال مروان بن أبي حفصة في مدح بني مطر:

هُـمُ يَمْنَعُـونَ الجَـارَ حَتَّـى كَـأَنَّمَـا ... لِجَارِهِـمُ بَيْـنَ السِّمـاكَيْـنِ مَنْـزِلُ[1]
وَلَا يَسْتَطِيـعُ الفَـاعِلُـونَ فِعَـالَهُـمْ ... وَإِنْ أحْسَنُوا في النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُـوا[2]
بَهَالِيلُ في الإسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُـنْ ... كَـأَوَّلِهِـمْ فِـي الجَـاهِلِيَّـةِ أَوَّلُ[3]
هُمُ القَوْمُ إنْ قَالُوا أَصَابُوا وإنْ دُعُـوا ... أَجَابُوا وإنْ أُعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْـزَلُـوا

★ ★ ★

وقال أيضًا:

تَجَنَّبَ «لا» في القَوْلِ حَتَّى كَـأَنَّـهُ ... حَرَامٌ عَلَيْهِ قَـوْلُ «لا» حِيـنَ يُسْـأَلُ
تَشَـابَـهَ يَـوْمَـاهُ عَلَيْنـا فَـأَشْكَلا ... فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أيُّ يَـوْمَيْـهِ أَفْضَـلُ
أَيَـوْمُ نَـدَاهُ الغمـرِ أمْ يَـوْمُ بَـأْسِـهِ ... وَمَـا مِنْهُمَـا إلّا أغـرُّ مُحَجَّـلُ[4]

★ ★ ★

وقال أبو تمام في مدح محمد بن عبدالملك الزيات:

هو البحـرُ مـن أيِّ النـواحـي أتيْتَـهُ ... فلجّتُـهُ المعـروفُ والجـودُ سـاحلُـهْ
كريمٌ إذا ما جئـتَ للعـرفِ طـالبًـا ... حبـاك بمـا تحـوي عليـه أنـاملُـه
فلو لم تكـنْ فـي كفّـهِ غيـرُ نفسِـه ... لجـاد بهـا فَلْيَتَّـقِ الله سـائلُـه

★ ★ ★

(١) السماكان: نجمان وهما الرامح والأعزل.
(٢) النائبات: المصائب.
(٣) البهاليل: ج البهلول وهو السيد.
(٤) الغمر: معظم الماء.

ملحق:

فصول من كتاب « اللطائف والظرائف »
للثعالبي في مَدْح بعض الصفات المعنويّة

باب مدح العقل

قال الله تعالى في شأن تعظيم العقل: ﴿إِنْ في خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، وقال جل ذكره: ﴿اتَّقُون يا أُولي ٱلأَلْبَابِ﴾[2]، وقال عز اسمه: ﴿إنَّ في ذلك لعبرةً لِأولي الأبْصَار﴾[3]. وقال النبي ﷺ: «الناس يعملون الخيرات، وإنهم يعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم»، وقيل له عليه الصلاة والسلام في الرجل الحسن العقل الكثير الذنوب، فقال: «ما من آدمي إلا وله خطايا وذنوب، فمن كانت سجيته العقل لم تضره ذنوبه، لأنه كلما أخطأ لم يلبث أن يتدارك ذلك بتوبة تمحو ذنوبه وتدخله الجنة».

وقال سعيد بن المسيب في قوله عز وجل: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوِيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[4] يعني ذوي عقل.

---

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) آل عمران: ١٣ والنور: ٤٤. وقد وهم في المطبوعة فوضع الألباب بدل الأبصار. أما إذا أراد الألباب فالآية هي: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ يوسف: ١١١.

(٤) الطلاق: ٢.

وقال مجاهد في قوله تعالى جده: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[1] أي عقل.

وقال الضحاك في قوله جل ثناؤه: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[2] . أي عاقلًا.

وقال الحسن: العقل هو الذي يهدي إلى الجنة ويحمي عن النار لقوله عز وجل حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[3] .

* * *

باب مدح الأدب

قال بزرجمهر: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته الأدب، وأي شيء فات من أدرك الأدب. وقال ابن عائشة القرشي: أهل الأدب هم الأكثرون وإن قلوا، ومحل الأنس أين حلوا. وقال خالد بن صفوان لابنه: يا بني،الأدب بهاء الملوك ورياش السوقة، والناس بين هاتين، فتعلمه تجده حيث تحب. وقيل: الأدب وسيلة إلى كل فضيلة، وذريعة إلى كل شريعة. وقلت في الكتاب المبهج: حلية الأدب لا تخفى وحرمته لا تُجفى.

وقال البريدي:

ليس الفتى كلُّ الفتى ... إلا الفتى في أدبهْ
وبعض أخلاق الفتى ... أَوْلى بهِ من نَسَبِهْ

وقال بعض الظاهرية: لو علم الجاهلون ما الأدب، لأيقنوا أنه هو الطرب.

---

(١) ق: ٣٧.
(٢) يس: ٧٠.
(٣) عيون الأخبار ٣: ٢٨٠.

وقال حكيم لابنه: يا بني، عز السلطان يوم لك ويوم عليك، وعز المال وشيك ذهابه، جدير انقطاعه وانقلابه، وعز الحسب إلى خمول ودثور وذبول، وعز الأدب راتب واصب لا يزول بزوال المال، ولا يتحول بتحول السلطان. ويُقال: من قعد به حسبه، نهض به أدبه. وقال ابن المعتز: لست تعدم من الأديب كرمًا من طبعه، أو تكرمًا من أدبه، وقال أيضًا: الأدب صورة العقل، فحسّن عقلك كيف شئت.

★ ★ ★

باب مدح الشعر والشعراء

كان يُقال: الشعر ديوان العرب، ومعدن حكمتها وكنز أدبها. ويُقال: الشعر لسان الزمان، والشعراء للكلام أمراء. وقال بعض السلف: الشعر أدنى مروءة السرى، وأسرى مروءة الدنى. وقال آخر: الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس، وتستحج به الحوائج، وتشفى به السخائم. ويُقال: المدح مهزة الكرام وإعطاء الشاعر من بر الوالدين. وقال بعضهم: أنصِف الشعراء، فإن ظلامتهم تبقى، وعقابهم لا يفنى، وهم الحاكمون على الحكام. وقال آخر: الشعر الجيد هو السحر الحلال، والعذب الزلال.

وقال النبي ﷺ: «إنَّ من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرًا». وعنه عليه الصلاة والسلام: «أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد: ألاَ كلُّ شيءٍ ما خلاَ الله باطلُ. وقال له النبي، عليه الصلاة والسلام: صدقت. ثم قال: وكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحالَةَ زَائِلُ. قال النبي، عليه الصلاة والسلام: كذبتَ، نعيمُ الجنةِ لا يزول.

وقال بعضهم: رُبَّ بيتِ شعرٍ خيرٌ من بيت تبر. وكان عمر، رضي الله عنه، لا يَعْرِض له أمرٌ إلا أنشد فيه بيت شعر. وكان يُقال: النثر يتطاير تطاير الشرر، والشعر يبقى بقاء النقش في الحجر. وقال آخر: الشعر صوب العقول، وكلام

الفحول. وقيل لحمزة بن بيض: من أشعر الناس؟ قال: من إذا قال أسرع، وإذا وصف أبدع، وإذا مدح رفع، وإذا هجا وضع.

★ ★ ★

باب مدح التجارة

قد ذكر الله تعالى التجارة في القرآن حيث قال:

﴿يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِٱلبَاطِلِ إِلَّا أنْ تَكُونَ تَجارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[١]. وقال عز اسمه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا﴾[٢]. وقال جل ذكره: ﴿وَآخَرُوْنَ يَضْرِبُونَ في ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ ٱللهِ﴾[٣].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أطيب ما يأكل الرجل من كسبه»، والكسب في القرآن التجارة. وقال عليه الصلاة والسلام: «التاجر الصدوق مع النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا». وقال عليه الصلاة والسلام: «تسعة أعشار الرزق في التجارة. وكان صلى الله عليه وسلم برهة من الدهر تاجرًا، وشخصًا مسافرًا، وباع واشترى حاضرًا، ولاشتهار أمره في ذلك قال المشركون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلأَسْوَاقِ﴾[٤]، فَأَخْبَرَ جل اسمه أن الأنبياء قبله قد كانت لهم تجارات وصناعات.

---

(١) النساء: ٢٩.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) المزمل: ٢٠.

(٤) الفرقان: ٢٠.

وكان عمر، رضي الله تعالى عنه، يقول: ما ميتة بعد القتل في سبيل الله أحب إليَّ من أن أموت بين شعبتي رحلي، أضرب في أرض الله، وابتغي من فضل الله. وكان بعض السلف يقول: الأسواق موائد الله في أرضه، فمن أتاها أصاب منها. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[1]. يعني التجارة في الأسواق. وقيل: التجارة إمارة، والأرباح توفيقات.

★ ★ ★

باب مدح القناعة

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[2]. هي القناعة. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، العبد حر إذا قنع، والحر عبد إذا طمع. وكان يُقال: انت العزيز ما التحفتَ بالقناعة. وقيل: القانع بما قسم الله في حدائق النعيم.

ويُقال: أخفض الخفض رِضًا المرءِ بحظِّه. وقال بعضهم: من لم يقنع بالقليل، لم يكتفِ بالكثير. ومن فصول ابن المعتز: أعرف الناس بالله من رضي بما قسم له. وقال غيره: من قنع بِمَا لَهُ استراح وأراح. وقال أبو العتاهية:

إن كانَ لا يغنيكَ ما يكفيكَا ... فكلُّ ما في الأرضِ لا يُغنيكَا

وقال أيضًا:

قَنِّع النفسَ بالكَفَافِ وإلَّا ... طلبتْ منكَ فوقَ ما يكفيها

★ ★ ★

---

(١) البقرة: ٢٦٧.

(٢) النحل: ٩٧.

باب مدح الصمت

من حكم لقمان رحمة الله عليه: الصمت حكمة وقليل فاعله. وكان يُقال: الصمت أنفع للناس، والسكون أنفع للطير لأن الطير إذا نَبَشَ قُبض وحُبس. وقال بعض السلف: الندم على الصمت خيرٌ من الندم على القول. ومن فصول ابن المعتز: من أخافه الكلام أجاره الصمت. وقال أيضًا: الخطأ بالصمت يُخْتَم، والخطل بمثله لا يكتم. وقال آخر:

الصمــتُ يُكْسِــبُ أهْلَــهُ صِــدْقَ المــودَّةِ وٱلمَحَبَــهْ
والقــولُ يستــدعــي لِصَــا حِبِـهِ ٱلْمَــذَمَّــةَ وٱلْمَسَبَّــهْ
فــاتــركْ كلامًــا لاغيًّــا ولا يكــنْ لــكَ فِيــهِ رَغْبَــهْ

وقيل: أربع كلمات صدرت عن أربعة ملوك، كأنما رُميت عن قوس واحدة، قال كسرى: لم أندم على ما لم أقل، وندمت على ما قلت مرارًا. وقال قيصر: إني على رد ما لم أقل أقدرُ مني على رد ما قلت. وقال ملك الصين: إذا تكلمتُ بكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الهند: عجبتُ لمن يتكلم بالكلمة، إن رُفعتْ ضرَّتْهُ، وإن لم تُرفع ما نفعته.

★ ★ ★

باب مدح الصبر

قال النبي ﷺ: «لم يؤت الناس خيرًا من الصبر والمعافاة». وقال أيضًا عليه السلام: «لم نزل نستزيد للصابرين حتى نزلت: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. وقال عليه السلام: «عليكم بالصبر، فإنه لا إيمان لمن لا

---

(١) الزمر: ١٠

صبر له». وقال أيضًا: «الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية. شعر:

تَصَبَّر ولا تُبْدِ التَّضَعْضُعَ للعِدا ولو قطِّعت في الجسم منك البواترُ
سرورُ الأعادي أن تراكَ بذلةٍ ولكنها تَغْتَمٌّ إذ أنتَ صابرُ

ولبعضهم:

بنى الله للأخيار بيتًا سماؤُهُ همومٌ وأحزانٌ وحيطانُهُ الضرُّ
وأدخلهمْ فيهِ وأغلقَ بابَهُ وقال لهُمْ مفتاح بابِكُمْ الصبرُ

وكان ينشد:

إني وجدتُ وخيرُ القولِ أصدقُه للصبر عاقبةٌ محمودةُ الأثَرِ
وَقَلَّ من جَدَّ في أمرٍ يحاولُهُ فاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلَّا فازَ بالظَّفَرِ

* * *

باب مدح الحلم

كان يُقال: الحلم حجابُ الآفاتِ. وقال حكيم: حلمُ ساعةٍ يردُّ سبعين آفة. وقال بعض السلف: الحلم أجلُّ من العقل، لأن الله تعالى وصف نفسه به. وقيل: حسبُ الحليم أنَّ الناسَ أنصاره على الجاهل، ومن ملك غضبه احترز من عدوه. وقال الحسن رحمة الله عليه: ما بعث الله نبيًّا إلى قومٍ إلا بعثه وأمره بالحلم. وكان الأحنف يقول: ما أضيف شيء إلى شيء أحسن من علمٍ إلى حلم.

كان يقول: من لم يصبر على كلمة واحدة، سمع كلمات.

ومن أحسن ما قيل في الحلم قول الشاعر:

لنْ يَبلغَ المجدَ أقوامٌ وإن كَرُموا حتى يذِلوا وإن عَزُّوا لأقوامِ
ويُشْتَموا فترى الألوانَ مشرقةً لا عَفْو ذُلٍ ولكنْ عَفْوَ أحلامِ

★ ★ ★

باب مدح المشورة

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «المستشار بالخيار، وإن شاء قال، وإن شاء سكت». وقال عليه الصلاة والسلام أيضًا: «المستشار مؤتمن». وقال الحسن البصري: إن الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بالمشورة، لا من حاجة منه إلى آرائهم، وإنما أراد عز اسمه أن يعلمنا ما في المشورة من الفضيلة، حيث قال: ﴿وشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ﴾[1]، يعني أن الإنسان لا يستغني عن مَشُورة نصيح له، كما أن القوادم من ريش الجناح تستعين بالخوافي منه. قال بشار:

إذا بَلَغَ الرأيُ المشورةَ فاستَعِنْ بِحزم نصيحٍ أو نصاحةِ حَازِمِ
ولا تجعلِ الشُورى عليك غَضَاضةً فريشُ الخوافِي تابعٌ للقوادمِ

قال الأصمعي: قلت لبشار: رأيتُ رجال الرأي يتعجبون من أبياتك في المشورة، فقال: أو ما علمت أن المشاور بين إحدى الحسنيين، صوابٌ يفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في مكروهه، فقلت له: أنت والله في هذا الكلام أشعر منك في شعرك. وقال الجاحظ: المشورة لقاح العقول، ورائد الصواب، والمستشير على طرف النجاح، واستنارة المرء برأي أخيه، من عزم الأمور وحزم التدبير، وقد أمر الله تعالى أكمل الخلق لبًا، وأولاهم بالإصابة عزمًا، فقال لرسوله الكريم عليه السلام في كتابه الكريم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ فإذَا عَزَمْتَ فَتَوكَّلْ على آللهِ﴾[2].

(١) آل عمران: ١٥٩.
(٢) آل عمران: ١٥٩.

وقال حكيم: إذا شاورتَ العاقل صار عقلُهُ لك. ويُقال: أول الحزم المشورة. وقال العتابي: المشورة عين الهداية، وقد خاطرَ من استغنى برأيه.

★ ★ ★

باب مدح التأني

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[1] الآية، يعني فتثبتوا، وهو أبين. وقال حكيم: ينبغي للوالي أن يتثبت فيما أنهي إليه، ولا يتعجل، ويتأنى ويتمهل، حتى ينظر ويستكشف الحال، ويأخذ بأدب سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾[2]. وفي الخبر: «التأني من الله والعجلة من الشيطان». ويُقال: الأناة حصنُ السلامة، والعجلة مفتاحُ الندامة. وقيل: التأني مع الخيبة، خيرٌ من العجلة مع النجاح. وقال آخر: التأني في الأمور أول الحزم، والتسرع إليها عين الجهل. وقال النابغة:

الرِّفْقُ يُمنٌ والأَناةُ سَعادةٌ ... فَتَأَنَّ في أَمْرٍ تلاقِ نَجَاحا

وقال القطامي:

قد يدركُ المُتَأَنّي بعضَ حاجتِهِ ... وقد يكونُ مع المُسْتعجلِ الزَّلَلُ

★ ★ ★

---

(١) الحجرات: ٦.

(٢) النمل: ٢٧.

باب مدح الشجاعة

في الخبر: إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية أو عقرب». وكتب أنوشروان إلى وكلائه: عليكم بأهل الشجاعة والسخاء، فإنهم أهل حسن الظن بالله تعالى. وكان يُقال: الشجاع موقى، والجبان ملقى. ويقال: الشجاع محب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه، وقال بعض الحكماء: قوة النفس أبلغ من قوة الجسد، وقال الشاعر:

يَفِرُّ الجبانُ من أبيهِ وأُمِّه ... ويحمي شجاعُ القومِ من لا يناسِبُهْ

وقال أبو الطيب المتنبي:

يَرَى الجُبناءُ أَنَّ العجزَ عَقلٌ ... وتلكَ خديعةُ الطبعِ اللّئيمِ
وكُلُّ شَجاعةٍ في المرءِ تُغْني ... وَلاَ مِثلَ الشّجاعةِ في الحَكيمِ

★ ★ ★

باب مدح الجود

في الخبر: «إن الله تبارك وتعالى يحب الجواد لأنه جوادٌ كريم» وفيه أيضًا: «الجود من أخلاق أهل الجنة». ويُقال: الجودُ غايةُ الزهدِ، والزُّهدُ غايةُ الجودِ. وقال غيره: الجود أن تكون بمالِكَ متبرِّعًا، ومن مال غيرك متورِّعًا.

وقال علي بن عبدالله: الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء. وكان خالد بن عبدالله القسري يقول: تنافسوا في المغانم وسارعوا إلى المكارم، واكتسبوا بالجود حمدًا ولا تكتسبوا بالمال ذمًا، ولا تعدوا بمعروف لم تجعلوه، واعلموا أن حوائج الناس نعمة من الله عليكم، فلا تملوها فتعود نقمًا. وقال الشاعر:

لا تَزْهَدَنْ في اصطناعِ العُرْفِ تفعلُه ... إنَّ الذي يحرمُ المعروفَ محرومُ

فهرس المحتويات

الصفحة